الحب الكبير

فيكتور هوجو

Looloo
www.dvd4arab.com

المؤلف

ولد فيكتور هوجو بمدينة بيزانسون بفرنسا عام ١٨٠٢ ، وكان والده ضابطا بالجيش الفرنسي ، ونقل بعد شهرين من مولد ابنه الى جزيرة كورسيكا ومنها الى جزيرة البا ؛ ثم انتقل بعد ذلك فى سنة ١٨٠٥ الى باريس حيث قضت الاسرة بها ثلاث سنوات وانتقل منها الى نابولى فمدريد . وكان من نتيجة ذلك ان امتلأت مخيلة الصبى الصغير برؤى عديدة ودنيوات مختلفة كان لها اكبر الأثر فى حياته .

وكان قد بلغ الرابعة عشرة من عمره عندما اشترك فى مسابقة شعرية اقامتها الاكاديمية الفرنسية وارسل قصيدة تتألف من ثلاثمائة بيت من الشعر ظفرت باعجاب أعضاء الأكاديمية واكتفت لجنة المسابقة بتسجيل اسمه بين الشعراء وهم فى شك من امر الشاعر الفتى .

وتتابعت قصائده بعد ذلك واصدر مع أخيه الاكبر صحيفة أدبية باسم « المحافظ الأدبى » ونشر فيها العديد من قصصه اثارت اعجاب الجميع بما فيهم الشاعر الرومانسى الكبير شاتوبريان بحيث لقبه بالصبى النابغة .

واصدر أول ديوان له باسم اغانى وقصائد مختلفة فى سنة ١٨٢٢ .

وتزوج فى العام التالى بابنة الجيران « أديل فوشيه » ثم اصدر مجلة (لاموز الفرنسية) كانت فتحا جديدا فى ادب الشعر غيرت معالم الادب الكلاسيكى ولقيت معارضة كبيرة من انصار هذا الأدب .

وفى عام ١٨٢٧ نشر اول مسرحية له باسم كرومويل ضمنها مقدمة طويلة سجل فيها بحثا دقيقا وشاملا فى طريقته لمعالجة المسرحية

Looloo
www.dvd4arab.com

الرومانسيه ثم اصدر ديوانه المعروف باسم « الشرقيات » وبعدها قصة « آخر يوم فى حياة محكوم عليه بالاعدام » .

وكتب للمسرح مسرحيـــة ماريون دى لورم وانجزها فى ثلاثة اسابيع ولكن الرقابة اعترضت على تمثيلها لانها تتعرض لحياة الملك لويس الثالث عشر ، احد اجداد الملك شارل العاشر الذى كان يحكم فرنسا فى ذلك الوقت ، على انها لم تلبث ان ظهرت على المسرح بعد الانقلاب وفرار شارل العاشر سنة ١٨٣٠ ، ثم ظهرت مسرحية « هرناني » فاكتسبت شهرة كبيرة وتهافتت الجماهير على رؤيتها تهافتـــا لم يسبق له مثيل . ثم جاءت بعد ذلك رواية « احدب نوتردام » وبعدها مسرحية « الملك يلهو » ومنع عرضها هى الاخرى وظهرت له دواوين شعر عديدة نذكر منها الشرقيات سنة ١٨٢٩ واوراق الخريف سنة ١٨٣١ والاصوات الداخلية سنة ١٨٣٧ والاشعة والظلال سنة ١٨٤٠ والعقوبات سنه ١٨٥٢ والتأملات سنة ١٨٥٦ واسطورة القرون سنة ١٨٥٩ .

ولعب هوجو دورا سياسيا خطيرا فكان مؤيدا لابن نابليون ثم ناصر لويس فيليب وقاوم بعد ذلك سياسة نابليون الثالث ، ونتيجة لذلك صدر قرار بنفيه وظل فى منفاه حتى سنة ١٨٧٠ ، واصدر اثناء ذلك روايته المشهورة « البؤساء » وشكسبير وسير الدهور .

وعاد الى فرنسا بعد هزيمة نابليون الثالث واعلان الجمهورية الثالثة .

وانتخب رئيسا للاكاديمية الفرنسية وعضوا فى المجلس النيابى ، واصبح الشاعر الرسمي للدولة ، وظهرت له رواية جديدة بعنوان ٩٣ عن الثورة الفرنسية . وعاش آخر ايامه مبجلا ومحترما وتوفى بباريس سنة ١٨٨٥ ، وشيعت جنازته باحتفال مهيب ، ودفن فى « البانتيون » حيث يرقد عظماء فرنسا .

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ ١ ـ

ـ وعندما جاء دور النقيب ليوبولد دوفرني اتسعت عيناه وهو يحدق في الحاضرين وقال انه في الواقع لا يعرف في حياته حدثا يستحق الاهتمام ، ولكن الملازم هنري انبري عندئذ وقال له :

ـ ومع ذلك ، فانك قلت لنا يا سيدي النقيب انك سافرت كثيرا ورايت الدنيا . الم تذهب الى جزر الانتيل والى افريقيا وايطاليا واسبانيا ؟ آه ... ولكن ها هو كلبك الاعرج ايها النقيب !

اجفل دوفرني ، وافلت السيجار من يده وتحول الى مدخل الخيمة فجاة . كان هناك كلب ضخم يسرع اليه وهو يعرج .

وهرس الكلب سيجار النقيب ، ولم يحفل هذا الاخير بذلك ؛ اما الكلب فراح يتمسح فيه بذيله ويثب حوله بقدر استطاعته ثم مضى اخيرا فرقد امامه . وتاثر النقيب وراح يلاطفه بيده اليسرى في حركة آلية وقد ضاق صدره ، وبزبح بيده الاخرى رباط خوذته مكررا :

ـ اهذا انت يا راسك ؟ ... اهذا انت ؟

وصاح يقول اخيرا : ولكن من الذي جاء بك ؟

ـ اذا سمحت لي ايها النقيب ..

وكان الرقيب ناديه قد ازاح ستار الخيمة منذ لحظات ووقف والدموع تملأ عينيه وذراعه اليمنى ملفوفة في سترته ، وتمتم يقول اخيرا : اذا سمحت لي ايها النقيب ..

رفع دوفرني عينيه اليه وقال : اهذا انت يا ناديه ؟ .. ولكن كيف استطعت بحق الشيطان ؟ .. يا للكلب المسكين ! .. كنت احسبه في معسكر الانجليز ... اين عثرت عليه ؟

ـ انني لم اعثر عليه يا سيدي النقيب ، وانما مضيت وبحثت عنه .

Looloo
www.dvd4arab.com

نهض النقيب وبسط يده للرقيب ، ولكن يد هذا الاخير بقيت ملفوفة فى سترته . ولم يهتم النقيب بذلك ، وعاد ثاديه يقول :

ـ ذلك اننى رايتك يا سيدى النقيب تفتقد راسك منذ ان فقدتاه . والحق اننى اعترف لك انه منذ ذلك اليوم الذى لم يات فيه كعادته ليشاركنى جرايتى وانا امتع نفسى من البكاء كما لو كنت طفلا .. ولكننى احمد الله على ذلك فانتى لم ابك فى حياتى الا مرتين ، الاولى كانت فى ذلك اليوم الذى ...

ونظر الرقيب الى سيده فى ارتباك واستطرد يقول : والثانية عندما امرنى بلتازار ، ذلك العريف الغريب الاطوار بالفرقة السابعة ان اقشر بصلا .

صاح هنرى وهو يضحك : ولكنك لم تقل انا لماذا بكيت فى المرة الاولى يا ثاديه .

قال النقيب فى رفق وهو لا يكف عن مداعبة الكلب : لا ريب ان ذلك حين حصلت على لقب اول فارس فى فرنسا ايها العزيز .

ـ كلا ايها النقيب .. اذا كنت قد بكيت فقد كان ذلك ، كما تعرف ، فى اليوم الذى اصدرت فيه الامر باطلاق النار على بوج جارجال .

غطت ملامح النقيب سحابة واقترب من الرقيب على الفور وحاول ان يشد على يده ، ولكن على الرغم من الافراط فى مثل هذه الحفاوة فقد ابقى ثاديه يده ملفوفة فى سترته ، وارتد بضع خطوات الى الوراء فى حين راح دوفرنى يحدق فيه وفى عينيه تعبير يدل على الكدر . وعاد ثاديه يقول :

ـ نعم يا سيدى النقيب .. نعم .. اننى بكيت فى تلك المرة حقا ؛ وقد كان يستحق ذلك ... صحيح انه كان اسود اللون ولكن البارود اسود اللون هو الآخر و ... و ...

وكان الرقيب يود طبعا ان يفرغ من تشبيهه الغريب بطريقة مشرقة ، وربما كان هناك شىء فى هذا التشبيه يرق لخياله ، ولكنه

www.dvd4arab.com

حاول عبثا التعبير عنه . وبعد ان اعيته المحاولة بكل المعانى انسحب فجاة ، كما يفعل القائد حين يفشل فى حصار مكان منيع واستطرد يقول دون ان يحفل بابتسامات الضباط الشبان الذين يستمعون اليه :

ـ هل تذكر ايها النقيب ذلك الزنجى المسكين ، عندما جاء وهو مبهور الانفاس فى نفس اللحظة التى كان فيها عشرة من زملائه هنا ؟ الحق انه كان لابد من تكبيلهم ، فقد كنت انا الذى اتولى القيادة، وقد فك قيودهم هو نفسه لكى يحل محلهم بالرغم من رفضهم ذلك . ولكنه كان صلبا عنيدا .. اوه ، يا له من رجل ! .. كان صلبا حقا .. هل تذكر يا سيدى عندما وقف مكانه مستقيما كما لو كان يهم بالدخول فى حلبة الرقص .. وكلبه .. راسك الموجود هنا بالذات والذى فهم ما توشك ان تفعل بسيده فهجم على واطبق على عنقى ...

قاطعه النقيب يقول : انت لا تاتى الى هذه النقطة من قصتك يا ثاديه الا وتلاطف راسك بيدك .. انظر كيف ينظر اليك .

قال ثاديه فى قلق : انت على حق .. ان هذا المسكين راسك ينظر الى ... ولكن مالاجريدا العجوز قالت لى ان ملاطفة الكلب باليد اليسرى تثير بالنحس .

صاح دوفرنى فى دهشة وقد لاحظ لاول مرة اليد الملفوفة فى السترة والاصفرار الذى يكسو وجه ثاديه :

ـ ولماذا لا تلاطفه بيدك اليمنى ؟

اجاب الرقيب وقد ازداد ارتباكه : اذا سمحت لى ايها النقيب ... ذلك انه ... ان لك كلبا اعرج واخشى ان ينتهى بك الامر الى ان يكون لك رقيب اكتع .

هب النقيب واقفا وهو يصيح : كيف ؟ .. ماذا تقول ايها العزيز ثاديه ؟ .. اكتع ؟ .. ارنى ذراعك .. اكتع ! .. رحماك يا الله ! ..

Looloo
www.dvd4arab.com

وراح دوفرنى يرتجف ، فقد فك الرقيب سترته فى بطء وكشف عن ذراعه الملفوف فى منديل مصبوغ بالدم . وتمتم يقول وهو يرفع المنديل فى حذر :

ـ ولكن يا الهى ! .. قل لى ما الذى حدث ايها العزيز .

ـ اوه ان الامر فى غاية البساطة . قلت لك اننى لاحظت اساك وحزنك منذ ان اسر الانجليز الملاعين كليك .. هذا المسكين راسك ! .. كلب بوج جارجال .. وكان فى هذا وحده ما يكفى ؛ فعزمت اليوم ان اعود به حتى لو كلفنى ذلك حياتى ، لكى اتناول عشائى اليوم بشهية مفتوحة .. وبعد ان نصحت ماتليه بان ينظف حلتك جيدا استعدادا لمعركة الغد ، تسللت خلسة من المعسكر وانا لا احمل معى غير سيفى ، وسلكت طريقى خلال الادغال لكى اصل الى معسكر الانجليز باسرع وقت . ولم اكن قد بلغت اول الخنادق عندما رايت فى غابة صغيرة ، على اليسار ، جماعة من الجنود الانجليز ، تتقدمت فى حذر لكى استطلع امرهم . ولم يشعر بى احد منهم ، ورايت راسك فى وسطهم ، مربوطا الى شجرة ، فى حين راح رجلان عاريا الصدر كالوثنيين يتقاتلان من اجل كليك . ولم يلبث راسك ان رآنى فشد الحبل الذى يربطه الى الشجرة بكل قواه بحيث انقطع ثم اسرع الى على الفور . وطاردنى الجميع . وتغلغلت فى الغابة وراسك يتبعنى ، وراحت طلقات الرصاص ترن عند اذنى وراح راسك ينبح ، ولكن لم يسمعه احد منهم لحسن الحظ ، فقد كانوا يصيحون « الكلب الفرنسى .. الكلب الفرنسى » . ولم احفل بهم واجتزت الوغل . وكنت على وشك الخروج منه عندما رايت رجلين من الاعداء امامى فجاة . وتخلصت من احدهما بسيفى وكان فى استطاعتى ان اتخلص من الآخر دون اى شك لو لم تنطلق رصاصة من مسدسه فجاة ... اترى ذراعى الايمن ؟ .. ولكن لا اهمية لهذا . وهجم الكلب على الرجل وانشب اظافره فى عنقه فهوى الانجليزى مختنقا . كان الكلب قاسيا حقا فى عدائه ، ولكن لماذا

www.dvd4arab.com

لاحقني ذلك الرجل ملاحقة الفقر للرجل المحتاج ! .. واخيرا عاد ثاديه الى المعسكر ومعه راسك . وعزائى الوحيد هو ان الله الرحيم لم يشأ ان اشترك فى معركة الغد .

واكتست ملامح الرقيب بسحابة من الكدر لا لشيء الا لأن اصابته ستمنعه من الاشتراك فى المعركة .

وصاح النقيب محنقا : ثاديه ! ..

ولكنه لم يلبث ان اردف فى رفق : كيف بلغ بك الجنون الى حد ان تعرض حياتك للخطر من اجل كلب ؟ .

— لم أعرض حياتى الخطر من اجل كلب يا سيدى النقيب ... انما من اجل راسك .

لانت ملامح دوفرنى تماما فى حين استطرد الرقيب :

— من اجل راسك ، كلب يوج جارجال .

صاح النقيب وهو يرفع الى جبينه : كفى ... كفى ايها العزيز ثاديه .

واردف يقول بعد صمت قصير : هلم بنا واعتمد على ذراعى ... تعال معى الى غرفة الاسعافات .

اطاعه ثاديه بعد مقاومة صغيرة احتراما منه . وكان الكلب قد راح يحك انفه فى جلد الدب الضخم الذى يضعه النقيب عند قدميه ، ولكنه عندما رآهما يبتعدان نهض وتبعهما بدوره .

— ٢ —

اثارت هذه الواقعة اهتمام الضباط وفضولهم .

كان النقيب ليوبولد دوفرنى رجلا كريما ؛ من هؤلاء الرجال الذين يوحى منظرهم بالاحترام المشوب بالاهتمام . ومع ذلك فلم يكن فيه ما يثير الدهشة فى بادىء الامر ، فقد كان يبدو بارد الطباع لا يأبه لشيء ما . ومع ان شمس البلاد الحارة قد لوحت بشرته فانها لم

Looloo
www.dvd4arab.com

تكسبه تلك الحمية فى الحركات وفى الحديث التى تتآلف عند المولدين البيض مع ذلك القشور الرقيق . وكان يتحدث قليلا ويصغى نادرا ويبدو متاهبا دائما للعمل . كان الأول دائما فوق صهوة الجواد والاخير فى العودة الى الخيمة ، وكان يبدو انه يبحث فى المتاعب الجسدية عن تسلية وترفيه لافكاره ، تلك الافكار التى حفرت قسوتها الحزينة فى غضون جبينه التى مني بها قبل الأوان .. لم تكن من تلك الافكار التى يتخلص منها المرء ببثها والافصاح عنها ، ولا من تلك التى يتبادلها مع غيره فى حديث عابث . كان ليوبولد دوفرنى الذى لم تستطع المعارك والحروب أن تحطم جسده يشعر بتعب لا يوصف فى تبادل الحديث مع اى شخص . كان يتهرب من المناقشات ويبحث عن المعارك ، واذا انقاد فى بعض الاحيان الى مجادلة كلاميه فانه كان ينطق بثلاث او اربع كلمات زاخرة بالمعانى والحكمة ثم لا يلبث ان يتوقف فى اللحظة التى يوشك فيها ان يقنع محدثه ويتمتم « ما الجدوى ؟ » ويخرج لكى يسأل القائد عما يمكنهم ان يفعلوا فى انتظار ساعة الهجوم .

وكان زملاؤه يلتمسون له العذر لطباعه الجافة والمتحفظة ولعزوفه الى الصمت لانهم كانوا يجدونه فى كل الظروف شجاعا وكريما ومتسامحا . كان قد انقذ حياة الكثيرين منهم معرضا حياته هو للخطر ، وكانوا يعرفون انه اذا كان يفتح فمه فيما ندر فان حافظة نقوده لا تظل مغلقة ابدا على الاقل . كانوا يحيونه فى الجيش ، بل كانوا يغفرون له اجباره على تدللهم به .

ومع ذلك فقد كان لا يزال فى طور الشباب . كان يبدو فى الثلاثين من عمره مع انه كانت لا تزال امامه بضعة اعوام لكى يبلغ هذه السن .

وعلى الرغم من انه كان يقاتل فى صفوف الجمهوريين منذ بعض الوقت ، فقد كانوا يجهلون كل شىء عنه .

كان ثاديه وراسك هما الوحيدان اللذان استطاعا ان ينتزعا منه

Looloo
www.dvd4arab.com

بعض مشاعر الود . وكان الرقيب الشيخ الطيب ثاديه قد التحق بالجيش معه ولم يكن يفارقه أبدا . وكان يحكى فى بعض الاوقات بضعة ظروف من حياته . كانوا يعرفون ان دوفرنى قد عانى شقاء كبيرا فى امريكا وانه تزوج فى سانتو دومينجو وانه فقد زوجته وكل أهله وسط المذابح . وفى ذلك الوقت اثارت مصائبه رثاء الجميع وشفقتهم ؛ ولكن كان رثائهم لمصائبه اقل بكثير من رثائهم لطريقته فى تأله منها . والحق انهم كانوا يرون خـــلال برودة وعدم اهتمامه اختلاجات جرح داخلى لا يبرا .

فما ان تبدا معركة ما حتى يبدو الصفاء على جبينه ويبدى شجاعة فى الحرب كما لو كان يحاول ان يصبح جنرالا ؛ ومتواضعا بعـد المعركة كما لو كان لايبغى الا ان يبقى جنديا عاديا .

واذ يرى زملاؤه ازدراءه للأمجاد والالقاب لا يفهمون لماذا يبدو كأنه تمنى شيئا قبل المعركة ولا يخطر ببالهم ابدا انه لا يبغى شيئا من اشتراكه فى المعارك غير الموت .

وقد عينه ممثلو الشعب المشرفون على الجيش ذات يوم رئيســا لاحد الالوية ولكنه رفض هذه الترقية لانه اذا افترق عن فرقته تعين عليه ان يفترق فى نفس الوقت عن الرقيب ثاديه . وبعد بضعة أيام تطوع فى حملة عسكرية انتحارية وعاد منها على غير ما كان الجميع يتوقعون . وسمعوه عندئذ يتحسر على الرتبة التى رفضها قائلا : ما دامت مدافع العـدو تابى الا الابقاء على فلعل المفصلة التى تدق اعناق كل من يرتفعون ويرتقون ترضى بى .

— ٢ —

صاح الملازم هنرى وهو يمسح حذاءه الطويل الرقبة الذى ترك عليه الكلب اثناء مروره بقعة كبيرة من الوحل :

— أراهن ان النقيب لا يرضى ان يستبدل ... كلبه الصـــورة

www.dvd4arab.com

بصناديق النبيذ العشرة التى رايناها منذ ايام فى سيارة الجنرال .

قال المرافق بسكال : انها لتكون صفقة خاسرة ، فان الزجاجات قد اصبحت فارغة الآن ، وانا على يقين من ذلك .

واردف يقول بلهجة الجد : ولعلكم تتفقون معى على ان ثلاثين زجاجة فارغة لا تساوى حتما قائمة هذا الكلب المسكين . وهى قائمة يمكن على كل حال ان تستخدم قبضة لاحد الاجراس .

اثارت لهجة الجد التى قيلت بها هذه الكلمات الاخيرة ضحكات الجميع ، فيما عدا الضابط الشاب الغريب ، فقد بدا عليه الاستياء وقال :

ـ لا ارى ما يدعوكم الى التندر فيما حدث ايها السادة . ان هذا الكلب وهذا الرفيب ، وقد رايتهما مع دوفرنى منذ ان عرفته ، يوحيان بشىء من الاهتمام . ثم ان هذا المشهد ...

قال باسكال وقد احنقه استياء هنرى وسخرية الآخرين : ان هذا المشهد عاطفى جدا .. وكيف لا يكون .. كلب مفقود عاد الى صاحبه ، وذراع مكسورة ! .

قال هنرى وهو يلقى خارج الخيمة بالزجاجة التى افرغها لتوه : انت مخطىء ايها الملازم باسكال ... ان هذا البوح يثير فضولى الى حد كبير .

عاد دوفرنى فى هذه اللحظة ومضى فجلس مكانه من غير ان ينطق بكلمة . كان مستغرقا فى تفكير عادىء ويبدو مشغولا بحيث انه لم يسمع شيئا مما يقال حوله . وكان راسك قد تبعه وقبع عند قدميه وهو ينظر اليه فى شىء من القلق :

ـ اليك كاسك ايها النقيب ... تذوق هذا النبيذ .

قال النقيب معتقدا انه يرد على سؤال باسكال : اوه ، الحمد لله . ان الجرح ليس خطيرا ، وذراعه لم تنكسر .

كان الاحترام غير الارادى الذى يبديه النقيب نحو جميع زملائه سببا فى ان هنرى تغلب على الضحكة التى اوشكت ان تنطلق من بين شفتيه وقال :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ ما دمت قد اطمانت على ثاديه ، وما دمنا قد اتفقنا على أن يروى كل منا احدى مغامراته اختصارا لهذه الليلة التى كتب علينا قضاؤها فى الخيمة فاننى ارجو ايها الصديق العزيز ان تفى بوعدك وان تذكر لنا قصة كلبك الاعرج وقصة برج ... ذلك العملاق كما تدعوه ...

وما كان دوفرنى ليقبل ان يتكلم لو لم يضم الجميع اصواتهم الى صوت الملازم ، ولم يسمعه اخيرا الا النزول عند رجائهم فقال :

ـ سوف اشبع فضولكم ايها السادة . ولكن لا تنتظروا منى اكثر من قصة صغيرة بسيطة لا اقوم فيها باكثر من دور ثانوى . واذا كان الرباط الذى يربطنى بثاديه وراسك يجعلكم تنتظرون شيئا عجيبا فاننى اقول لكم انكم مخطئون ، وهانذا ابدا .

وساد عندئذ صمت عميق .

وبقى دوفرنى لحظة حالما كما لو لكى يستعيد الى ذهنه احداثا امحت منذ عهد بعيد ، واخيرا بدا يقول فى صوت خافت تتخلله وقفات متكررة .

ـ ٤ ـ

ولدت فى فرنسا ولكننى كنت لا ازال حدثا عندما غادرتها للاقامة فى سانتو دومينجو ، ونزلت عند احد اعمامى ، وهو مستوطن ثرى جدا كان ينبغى ان اتزوج ابنته .

كانت املاك عمى مجاورة لحصن جاليفيه ، ومزارعه تشغل الجزء الاكبر من سهول الاكول .

وهذه النقطة تبدو لكم بغير ذات اهمية ، ولكنها كانت اول اسباب الدمار الذى حل بأسرتى كلها .

كان ثمانمائة من الزنوج يزرعون اراضى عمى الشاسعة ، وكانت الظروف التى يعيش فيها هؤلاء العبيد حزينة يزيد من حدتها

Looloo
www.dvd4arab.com

وقسوتها برود سيدهم ، فقد كان عمى من هؤلاء المزارعين الذين حجر الاستبداد والجبروت قلوبهم ، وهم قلة والحمد لله . وكان اقل تردد من قبل عبد من عبيده سببا فى ان يلقى اسوا عقاب ، وغالبا ما يكون توسط اولاده سببا فى تفاقم غضبه ، ولهذا كنا فى اغلب الاوقات نضطر الى الاكتفاء بتخفيف حدة الالام التى كنا لا نستطيع اتقاءها .

واحد فقط من هؤلاء العبيد لقى الحظوة عند عمى . كان قزما اسبانيا خلاسيا جاءه من جمايكا ، وكان عمى قد اقام مدة طويلة فى البرازيل واكتسب تقاليد البرتغال وعاداته القائمة على البذخ . وحرص على ان يحيط نفسه بجهاز يدل على مدى ثرائه ... عبيد كثيرون مدربون على الخدمة تمام التدريب كالخدم الاوربيين كانوا يصفون على بيته ومضة الاسياد . ولكى لا ينقصه شىء جعل من القزم مهرجه الخاص مقلدا فى ذلك الامراء الاقطاعيين القدامى الذين كان لكل منهم مهرجه الخاص . ويجب القول ان اختيار عمى كان موفقا تماما فان القزم واسمه « هابيبراه » كان واحدا من هؤلاء البشر الذين يجعلهم تكوينهم الطبيعى اقرب الى المسوخين والوحوش اذا لم يثيروا الضحك .

وكان عمى يحبه بسبب دمامته النادرة ومرحه الذى لا يتغير . كان كان هابيبراه هو الاثير لديه فى حين كان يرهق العبيد الاخرين بالعمل طوال النهار . ولم يكن لهابيبراه من عمل آخر الا ان يمشى خلف سيده وهو يحمل مروحة من ريش النعام يطرد بها الناموس عنه . وكان يتناول طعامه وهو جالس عند قدمى عمى فوق حصيرة من الاسل . وكان عمى يعطيه دائما ما يتبقى فى طبقه من طعامه الخاص المفضل ، ولم يكن هابيبراه يستخدم مزاياه كمهرج ويقول ما يعن له ان يقول وان يفعل ما يفعل الا للترفيه عن سيده ؛ وذلك بآلاف الكلمات المضحكة والمصحوبة بالالتواءات والتقلصات .. وعند اقل حركة من عمى كان يسرع اليه يخفة القرد وخضوع الكلب . ولم

www.dvd4arab.com

اكن احب هذا العبد ، وكنت احس بشيء من الرثاء نحو اولئك الزنوج التعساء الذين كنت اراهم يكدون ويكدحون طوال النهار . ولكن هذا المرح الممسوخ وهذا العبد الكسولى بثيابه المضحكةالمزركشةبالشرائط والزاخرة بالاجراس الصغيرة لم يكن يثير الا احتقارى . ومهما يكن فان هذا القزم لم يكن يستخدم حظوته عند سيده لمنع اذاه وغلظته عن اخوانه العبيد ، ولم يكن يتدخل ابدا حين كان سيده يفرض عقابه عليهم . بل ان بعضهم سمعوه ذات يوم ، وكان يظن انه بمفرده ، وهو يحث سيده لتشديد عقابه لهؤلاء المساكين . وكان يبدو ان العبيد لا يكنون له كراهية ما فقد كان يوحى لهم بنوع من الخوف المشوب بالاحترام والذى لا يمكن ان يشبه الحقد ابدا . وعندما كانوا يرونه يمر بين اكواخهم بطاقيته العريضة المدببة الحافة والمزينة بالاجراس الصغيرة والتى رسم عليها هو نفسه بالحبر الاحمر صورا غريبة كانوا يقولون بينهم وبين انفسهم وفى صوت خافت « انه ساحر » .

هذه النقاط التى الفت نظركم اليها الآن لم تكن تشغلنى الا قليلا فى ذلك الوقت .

فقد كان كيانى كله ينبض وفتئذ بانفعالات حب طاهر يبدو ان ما من شيء يشوبه ... حب عظيم كانت تشاركنى فيه منذ الطفولة المرأة التى قدرت لى ، ولم اكن احفل بأى شيء آخر فيما عدا ما يتعلق بمارى . كان حبنا مزيجا من الاخلاص الاخوى والعشق الملتهب والثقة الزوجية .

قليل من الرجال قضوا سنواتهم الاولى اسعد منى .. قليل من الرجال احسوا بأرواحهم تتفتح للحياة تحت سماء اجمل وفى وفاق وتفاهم وسعادة للحاضر وامل للمستقبل كما احسست انا . كنت محاطا بكل المزايا التى يتمتع بها السيد فى بلد يكفى للونه فيها ان يحبوه الجميع بكل ما تريد النفس من بهجة وسعادة ، واقضى حياتى بجوار الكائن الذى اكن له كل الحب فى بلد الصيف فيها

www.dvd4arab.com

دائم والطبيعة رائعة . اكنت بحاجة الى اكثر من هذا لكى اثق ثقة عمياء فى نجمى السعيد ؛ ولكى اقول ان قليلا من الرجال قضوا سنواتهم الاولى اسعد منى ؟

وتوقف النقيب لحظة كما لو كان الكلام قد شق عليه ازاء هذه الذكريات السعيدة .

— ٥ —

استطرد يقول فى صوت اكثر ثباتا :

— وسط هذه الاوهام وهذه الآمال العمياء بلغت العشرين من عمرى . . كان يجب ان تتم هذه الآمال فى شهر اغسطس سنة ١٧٩١ ، وحدد عمى هذا الوقت لارتباطى بمارى . ولعلكم تفهمون بسهولة ان فكرة هذه السعادة الوشيكة كانت تشغل كل كيانى ، وكل ما عدا ذلك كان غامضا بالنسبة لى ، وخاصة الاحداث السياسية التى كانت تدور فى ذلك الوقت ؛ فقد كانت الاضطرابات تسود المستعمرة منذ سنين ، وقد اهاجت هذه الاضطرابات الجميع وان كان لا يهتمون الا بالكوارث التى تسببت فيها .

وقد حدث ذات مرة ان اشتركت مشاركة فعالة فى جدل سياسى ، وكان ذلك بمناسبة صدور قرار فى ١٥ مايو سنة ١٧٩١ ساوت فيه الجمعية الوطنية العمومية بين الرجال الملونين والبيض فى الحقوق السياسية ، وفى احدى الحفلات الراقصة التى اقامها المحافظ فى مدينة الكاب تجمع كثير من المستوطنين وراحوا ينتقدون بحماس كبير هذا القانون الذى يجرح كرامة البيض جرحا شديد القسوة ، ولم اكن قد اشتركت فى هذا الجدل بعد عندما رايت مزارعا ثريا يقترب منهم ، وكان البيض يقبلونه بينهم بكل صعوبة لان لونه كان مشكوكا فيه . وتقدمت فجأة نحو هذا الرجل وقلت له فى صوت مسموع :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ انصرف ايها السيد فان القوم يقولون عنك اشياء كثيرة بغيضة بسبب الدم المخلط الذى يجرى فى عروقك .

اثارته هذه التهمة الى حد انه طلبنى للمبارزة . وقد جرح كل منا فى هذه المناسبة ، وكنت مخطئا حقا حين تحديته ، واعترف بذلك ، ومن الطبيعى ان تغضب اللون لم يكن يكفى وحده لكى يدفعنى الى ما فعلت . ولكن هذا الرجل كان قد تجاسر اخيرا على رفع عينيه الى ابنة عمى ، وفى اللحظة التى امتهنت نفسى فيها بهذه الطريقة غير المتوقعة كان قد فرغ من مراقصتها .

ولم يكن لى من شاغل يشغلنى الا سعادتى المقبلة بحيث لم الحظ السحابة التى غطت كل افقنا تقريبا ، والتى كان لابد ان تنفجر وتقتلع جميع الكائنات ، وليس معنى هذا ان التفوس ، حتى اشدها علما وجزعا كانت تتوقع ثورة العبيد بصفة جبرية ، فقد كانوا يحتقرون هذه الطبقة ولا يخشونها . ولكن كان هنـــاك فقط ، بين البيض والنخاسين الاحرار ما يكفى من الحقد لكى ينفجر هذا البركان المقلوب على امره منذ وقت طويل ويدمر المستعمرة كلها فى اللحظة التى لم يكن احد يتوقعها منهم .

وفى الايام الاولى من شهر اغسطس المذكور الذى كنت انتظره بكل الاماني والآمال وقع حادث غريب اضاف الى هذه الآمال الهادئة قلقا لم اكن اتوقعه .

ـ ٦ ـ

كان عمى قد اقام على شواطىء جدول جميل يحيط بمزارعه استراحة صغيرة من اغصان الشجر وسط دغل صغير كانت مارى تذهب اليه كل يوم تستجم فيه وتستنشق نسمات البحر الحلوة التى تهب بانتظام طوال شهور السنة الحارة على جزيره سانتو دومينجو من الصباح حتى المساء والتى كانت برودتهـا تزداد وتنخفض حسب حرارة اليوم نفسه .

Looloo
www.dvd4arab.com

وذات صباح جاءتنى مارى وهى تنتفض ذعرا ، فقد دخلت الاستراحة المخضرة كعادتها ، وهناك رات لدهشتها البالغة وفزعها الشديد كل الزهور التى كنت قد جمعتها وفرشت بها الخلوة فى صباح اليوم نفسه قد انتزعت مكانها وديست بالاقدام ووضع مكانها باقة من الاقحوان البرى يدل مظهرها على انها قطفت حديثا ، فى نفس المكان الذى اعتادت الجلوس فيه وسمعت انين فيثارة يأتى من الدغل الذى يحيط بالاستراحة ، ثم صوتا غير صوتى راح يغنى فى نغمة رقيقة اغنية باللغة الاسبانية ، كما بدا لها لم تفهم منها شيئا لفرط قلقها ، فيما عدا ان اسمها تكرر فيها كثيرا . وعندئذ اسرعت بالهرب ، وبحسن الحظ لم يعقها شىء عن ذلك .

ملانى هذه القصة غضبا وغيرة وتركزت تخميناتى الاولى على النخاس الذى تشاجرت معه اخيرا . وطمانت مارى المسكينة وعاهدت نفسى على السهر عليها دون انقطاع حتى اللحظة القريبة التى يسمح لى فيها بان اذود عنها بطريقة اكثر فعالية .

وحدست ان ذلك السفيه لن يقتصر على هذه المحاولة الاولى لكى يطلعها على ما خمنت انه حبه فترصدت فى نفس الليلة بجوار المسكن الذى تقيم خطيبتى فيه ، بعد ان اخلد الجميع الى النوم واختبات بين اعواد القصب وخنجرى فى يدى وانتظرت . ولم يضع انتظارى سدى ففى نحو منتصف الليل ارتفعت مقدمة موسيقية حزينة وخفيفة قطعت حبل الصمت ، على بعد خطوات منى واثارت اهتمامى فجاة . وهزنى هذا الصوت هزة كبيرة ، فقد كان صوت فيثارة ، وتحت نافذة مارى بالذات . وتملكنى الغضب فاندفعت نحو المكان الذى يصدر منه الصوت محطما تحت قدمى سيقان اعواد قصب السكر وشاهرا خنجرى فى يدى . وفجاة احسست بشخص يمسكنى ويطرحنى ارضا فى قوة عجيبة وينتزع خنجرى من يدى فى عنف ورايت الخنجر يلمع فوق راسى ، ورايت فى نفس الوقت عينين تتالقان فى الظلام على مقربة من عينى وصنين من الاسنان

www.dvd4arab.com

البيضاء انفتحتا وقال صاحبهما فى غضب : انك وقعت فى يدى .. انك وقعت فى يدى .

كانت الدهشة التى المت بى اكثر من الفزع الذى اعتراني ورحت اناضل خصمى فى صمت . واوشك الخنجر ان يمزق ثيابى عندما بدت مارى عند النـــافذة وقد ايقظتها صوت القيثارة والعراك . وعرفت صوتى ورات وميض الخنجر فاطلقت صيحة فزع وخوف . وشلت صيحتها المذعورة يد غريمى فتوقف كالمذهول ، كما لو انه وقع تحت سحر واخذ يحرك الخنجر بضع مرات فوق صدرى مترددا ثم القى به بعيدا وهو يقول : كلا ، كلا ... انها ستبكى كثير .

واذ فرغ من هذه الكلمات الغريبة اختفى بين الاغصان قبل ان اتمكن من الوقوف . فقد شلت هذه المعركة الغريبة غير المتكافئة قواى لبضع لحظات ولم يبق اى صوت ولا اى اثر لوجوده او مروره .

ويتعذر على ان اقول ما مر بى فى هذه اللحظة التى افقت فيها من دهشتى الاولى بين ذراعى محبوبتى مارى التى ابقانى لهـــا ذلك الذى يبدو انه يريد ان ينافسنى فيها . وازداد سخطى وغضبى من هذا الغـــريم غير المتوقع ، واحســـست بالخجل لانني ادين له بحياتى .

فقد كان هناك بعض الكرم فى الاحســاس الذى دفع غريمى المجهول للابقاء على ، ولكن من يكون هذا الغريم ؟ .. انتابتنى الشكوك ، وهى شكوك اخذت تتبدد الواحد بعد الآخر . لا يمكن ان يكون هو ذلك المزارع الخلاس الذى اشارت اليه غيرتى فى بادىء الامر ؛ فانه لم يكن يملك مثل هذه القوة الهائلة ، ثم ان الصوت لم يكن صوته . ان الشخص الذى تعاركت معه بدا لى عاريا حتى خصره ، والعبيد فقط هم الذين يرتدون بهذه الطريقة ، ولكن لا يمكن ان يـكون ذلك الرجل عبدا فان المشاعر التى دفعته الى القاء الخنجر بعيدا لا يمكن ان تصدر من عبد ، ثم ان كل شىء فى كيانى كان يرفض الافتراض المهين فى ان يكون غريمى عبدا ، فمن يكون اذن ؟ ... وقررت ان انتظر وان اترقب .

Looloo
www.dvd4arab.com

كانت مارى قد ايقظت المربية العجوز التى تقوم لها بمقام الأم التى فقدتها وهى لا تزال فى المهـــد . وقضيت بقيـة الليل الى جوارها . وما ان طلع النهار حتى اطلعت عمى على هذه الاحداث الغامضة . وكانت دهشته بالغة ، ولكن كبرياءه ابت ان يكون عاشق ابنته المجهول عبدا . وهو الامر الذى افترضته انا . واصدر اوامره للمربية الا تفارق مارى ابدا . وسمح لى بمرافقة مارى فى كل نزهاتها حتى يوم رفائنا ، وكان قد تحدد فى يوم ٢٢ اغسطس .

وامر فى نفس الوقت ان توضع حراسة شديدة على اسوار املاكه ليلا ونهارا معتقدا أن العاشق لم يات الا من الخارج .

وبعد اتخاذ هذه الاحتياطات رايت ، بالاتفاق مع عمى ان اقوم بتجربة فمضيت الى الاستراحة على شاطىء النهر واصلحت فوضى الامر ، واعدت تجميلها بالزهور كما اعتدت ان افعل من اجل مارى .

وعندما حانت ساعة ذهابها اليها كالمعتاد تسللت بقدارتى بعد ان حشوتها وعرضت على ابنة عمى ان ارافقها حتى الاستراحة ، وتبعتنا المربية العجوز .

ولم اكن قد اخبرت مارى اننى رتبت الاستراحة واخفيت الآثار التى افزعتها بالأمس . وسبقتنا هى الى الدخول ، وما كادت تفعل حتى قالت :

— ارايت يا ليوبولد ؟ .. ان الاستراحة ما زالت فى نفس حالة الفوضى التى تركناها بهـا بالامس . وها هى زهورك التى انتزعت وذبلت .

واردفت تقول وهى تاخذ باقة من الاقحوان البرى ملقاة على المقعد : وان ما يدهشنى هو ان هذه الباقة اليتيمة لم تذبل منذ الامس . انظر ايها الصديق العزيز ... انها تبدو كما لو كانت قد قطفت منذ لحظات .

Looloo
www.dvd4arab.com

وكنت قد تسمرت مكانى لفرط ما انتابنى من دهشة وغضب . والواقع ان عملى الذى انجزته فى الصباح كان قد دمر تماما ؛ وهذه الزهور الحزينة التى ادهشت نضارتها مارى كانت قد وضعت بكل وقاحة مكان الزهور التى قطفتها فى الصباح .

وقالت مارى وهى ترى اضطرابى : تجمل بالهدوء أيها الحبيب فهذا شىء قد انتهى . ان هذا الوغد لن يعود الى هذا العمل دون شك . لنضع كل هذا عند اقدامنا ، وكذلك هذه الباقة البشعة .

ولم اشأ ان اذكر لها الحقيقة اشفاقا من اخافتها . ولم اقل لها ان ما كان يجب الا يقع طبقا لها قد وقع ، وتركتها تدوس باقة الاقحوان بقدميها وهى تتميز سخطا وغضبا بريئين ، ثم اجلستها فى صمت بينى وبين المربية العجوز وانا اقول لنفسى ان الساعة قد ازفت لكى اعرف غريمى المجهول .

ولكننا ما كدنا ناخذ مجلسنا حتى وضعت مارى اصبعها على فمى ؛ فان بضعة اصوات اوهنها الريح وخرير الماء تناهت الى اذنيها . واصغيت .. كانت هى نفس المقدمة الحزينة البطيئة التى اثارت غضبى فى الليلة الماضية . واردت ان اندفع الى الخارج ولكن مارى منعتنى وهى تقول فى صوت خافت :

ـ ليوبولد ... تمالك نفسك . لعله سيغنى ؛ ولا شك ان كلماته ستخبرنا بهويته .

والواقع ان صوتا شاكيا تدل نبراته على انه الرجل ارتفع فى نفس الوقت من اعماق الغابة ، ومعه نغمات القيثارة الخفيضة بأغنية اسبانية عاطفية رنت فى اذنى بقوة بحيث لا زلت اذكر كلماتها حتى اليوم :

« لماذا تتهربين منى يا ماريا .. لماذا تتهربين منى يا فتاة ؟ .. ولم هذا الخوف عندما تسمعيننى ؟ .. انى فى الواقع رهيب ولكننى اعرف الحب والعذاب والغناء .

« فعندما ارى صورتك الرقيقة النقية تتسلل خلال سيقان اشجار

Looloo
www.dvd4arab.com

وسكت الكلب على الفور وعاد فرقد عند قدمى سيده حيث فرغ من التهام بعض الطعام الحقير . وكنت مرتديا ثيابى العسكرية ، وكان النور المنبعث من نافـــذة الزنزانة الضيقة ضعيفا بحيث ان بيرو لم يكن باستطاعته تمييز ملامحى .

قال يخاطبنى فى صوت هادىء : انثى مستعد .

واذ فرغ من هذه العبارة قام نصف قومة وعاد يقول : انثى مستعد .

قلت له وقد دهشت وانا اره حرا فى حركاته : كنت اظن انك مكبل بالسلاسل الحديدية .

وكان صوتى يتهدج لفرط الانفعال . وبدا ان السجين لم يعرف صوتى فقد دفع بقدمه بضع بقايا اصدرت رنينا وقال : السلاسل الحديدية ؟ .. انثى حطمتها .

وكان فى اللهجة التى نطق بها هذه الكلمات شيئا بدا كانه يقول : « انثى لم اخلق لكى اكبل بالسلاسل » . وعدت أقول :

— ولم يقل لى احد انهم تركوا معك كلبا .

— بل انا الذى ادخلته .

ازدادت دهشـــتى . فان باب الزنزانة كان مغلقا من الخـــارج برتاج ضخم ، وكان عرض النافذة لا يزيد عن ست بوصات ، ثم انها كانت مزودة بقضيبين من الحديد . ويبدو انه ادرك ما يجول براسى لانه نهض بقـدر ما سمحت له القبة المنخفضة ونزع دون اى جهد حجرا ضخما تحت النافذة ورفع القضيبين الحديدين المثبتين بهذا الحجر محدثا بذلك فتحة يمكن لرجلين ان يمرا منها بسهولة . وكانت هذه الفتحة تفضى الى غابة من اشجار الموز وجـوز الهنـد تكسو التل الذى شيد الحصن فوقه .

الجمتنى الدهشة . وفجأة سقط ضوء النهار على وجهى بحـدة واعتدل السجين كما لو انه وضع قدميه سهوا على ثعبان ، وارتطم جبينه باحجار القبة وارتسم على وجهه مزيج من المشاعر المختلفة

Looloo
www.dvd4arab.com

سمعتها . وتملكتنى رغبة قوية فى ان افرغ من هذا الكائن المجهول الذى تجاسر على اشراك اسم مارى فى اغان غرامية وتهديدات واخذت غدارتى واسرعت خارج الاستراحة . وذعرت مارى ومدت يدها لاحتجازى ؛ ولكننى كنت قد اندفعت الى الغابة حيث جاء الصوت . وفتشت كل ناحية وكل مكان ، واخذت اضرب فى الاحراش بغدارتى وادور بالاشجار الضخمة ؛ وحركت كل الاعشاب ولكن لا شىء .. لا شىء .. ودائما لا شىء .. وزاد هذا التفتيش وافكارى المشوشة من جراء الاغنية التى سمعتها من ارتباكى وقلقى .

وايقظنى من احلامى صوت جرس فتحولت الى ناحيته ورايت القزم هابيبراه بجوارى .

قال لى وهو ينحنى فى احترام : صباح الخير يا مولاى .

ولكن خيل لى ان فى نظرته الحولاء التى يرمينى بها فى انحراف غريب مزيجا من الخبث والفرح لما يراه من قلق على جبينى .

وصحت به فجاة اقول : تكلم ... هل رايت احدا فى الغابة ؟ .

ـ لم ار احدا غيرك انت يا مولاى .

وعدت اساله : الم تسمع صوتا ؟

بقى العبد لحظة كما لو كان يحاول ان يبحث عن رد ، وكنت اغلى ، فصحت به :

ـ عجل .. اجب حالا ايها الشقى .. هل سمعت صوتا هنا ؟ .

حملق بجراة بعينيه المستديرتين اللتين بدتا اشبه بعينى قطة متوحشة فى عينى واجاب :

ـ ماذا تعنى بصوت يا مولاى ؟ .. هناك اصوات فى كل ناحية وفى كل مكان . هناك اصوات العصافير وصوت الماء وصوت الريح بين الاوراق ...

قاطعته وانا اهزه فى عنف وقلت : ايها المهرج الوقح ... كف عن التلاعب بى والا اسمعتك عن قرب الصوت الذى يخرج من فوهة هذه الغدارة . اجبنى باربع كلمات ... هل سمعت فى هذه الغابة رجلا يغنى باللغة الاسبانية ؟ .

Looloo
www.dvd4arab.com

اجابنى دون ان يبدو عليه التاثر : نعم يا مولاى .. وسمعت كلمات من الريح كذلك .. ساخبرك بما هناك ... كنت اتنزه فى الغابة مصغيا الى ما تقوله اجراس طاقيتى فى اذنى . وفجاة انضمت الريح الى هذه الحفلة الموسيقية واضافت بضع كلمات بلغة تدعوها انت الاسبانية .. وانني احب هذه اللغة فهى تذكرنى بالوقت الذى كنت فيه طفلا ولم اكن مجنونا بعد فاقتربت من الصوت وسمعت آخر الاغنية .

قلت فى فروغ صبر : حسنا ... اهذا كل شيء ؟

وفى هذه اللحظة دوت صيحة مخيفة داخل الاستراحة ... وكانت مارى هى التى اطلقتها فاندفعت واسرعت ، بل طرت طيرانا وانا اتساءل مسبقا وفى ذعر عن المصيبة الجديدة التى لم يكن فى وسعى الا ان اخشاها . ودخلت الاستراحة وآنا الهث ، واذا بى يطالعنى منظر مخيف فقد رايت تمساحا ضخما يختفى نصف جسده فى طين النهر ويمر براسه الهائلة من خلال الكتل الخشبية التى يقوم فوقها سطح الاستراحة ، وقد فغر فمه الكبير الابيض مهددا شابا اسود هائل البنية كان يحيط باحدى ذراعيه الفتاة المذعورة ويقمد بالاخرى فى جرأة تصل حربته بين فكى الوحش الحادين . وكان التمساح يناضل ، فى غضب ، تلك اليد الجريئة التى توقفه عند حده . وفى اللحظة التى بلغت فيها عتبة الاستراحة اطلقت مارى صيحة فرح وانتزعت نفسها من ذراع الزنجى واسرعت والقت بنفسها بين ذراعى وهى تصيح :

ـ انتى نجوت !

وعند هذه الحركة منها ، وعند هذه العبارة التى اطلقتها تحول العبد فجاة وعقد ذراعيه فوق صدره المنتفخ ورمى خطيبتى بنظرة اليمة ووقف جامدا دون ان يبدو عليه انه يدرك ان التمساح موجود على مقربة منه وانه تخلص من الحربة ويهم بالتهامه . وكانت نهاية الاسود الشجاع مؤكدة لو لم ادفع بمارى بسرعة واضعها خلف ركبتى

www.dvd4arab.com

مربيتها العجوز التى تنتفض لفرط الخوف ثم اقترب من التمساح وافرغ رصاص غدارتى فى فمه . وصعق الحيوان على الفور وانقلب على ظهره محدثا صوتا كبيرا وتوترت قائمتاه وقد فاضت روحه .

وحول الزنجى الذى انقذته لحسن الحظ راسه ورأى الاختلاجات الاخيرة للتمساح وخفض عينيه الى الارض ثم رفعهما فى بطء نحو مارى التى كانت قد نهضت واسرعت بين ذراعى وقد اطمانت اذ ابتعد عنها الخطر وخاطبنى قائلا :

ـ لماذا قتلته ؟

وكان صوته يفيض باليأس ، ثم ابتعد فى خطوات كبيرة . دون ان ينتظر منى جوابا وعاد الى الوغل حيث اختفى .

ـ ٩ ـ

ازعجنى هذا المشهد الفظيع وهذه النهاية الغريبة والانفعالات التى سبقتهما وابحاثى غير المجدية وتبلبلت افكارى . وكانت مارى لا تزال تعانى من هلعها بحيث مضى وقت قبل ان نستطيع ان نتبادل افكارنا المضطربة فيما عدا بالنظرات وبضغط الايدى . واخيرا قطعت حبل الصمت قائلا :

ـ تعالى يا مارى ، فلنخرج من هنا ... ان فى هذا المكان شيئا من النحس .

وسألتها عندئذ كيف جاءت هذه النجدة العجيبة من ذلك الرجل الاسود فى ساعة الخطر الفظيع الذى تعرضت له ، واذا كانت تعرف من هو هذا العبد ، لان سرواله الخشن يدل على انه ينتمى الى ادنى طبقة من اهالى الجزيرة . وقالت لى :

ـ لا ريب انه من عبيد ابى ، ولا ريب انه كان يعمل بجوار النهر فى نفس اللحظة التى ظهر فيها التمساح وجعلنى اطلق الصيحة التى

www.dvd4arab.com

انذرتك بالخطر الذى استهدفت له . كل ما استطيع قوله هو انه وثب من الغابة واسرع لنجدتى .

سألتها : من اية ناحية اقبل ؟

ـ من الناحية المضادة لتلك التى صدر منها الصوت منذ لحظات والتى اندفعت انت نحوها .

قلب هذا الحادث العجيب المقارنة التى لم يسعنى الا أن اقيمها فى ذهنى راسا على عقب ، فان هذا الرجل المديد القامة والذى يتمتع بقوة خارقة كان يمكن تماما ان يكون هو الفريم المخيف الذى اشتبكت معه فى الليلة الماضية . ثم ان صدره العالى يكاد يكون دليلا قاطعا على ذلك فان المغنى قال انه ملك ولم يكن هذا الرجل غير عبد ، ولكننى تذكرت فى شىء من الدهشة سمات الخشونة والجبروت المرسومة على وجهه وسط العلامات المميزة لجنسيته الافريقية ؛ وميض عينيه وبياض اسنانه مع بشرته السوداء اللامعة ، وجبينه العريض ، وهو شىء مدهش فى اى رجل اسود ، ونفخة الانتصار التى تعطى لشخانة شفتيه ومنخريه شيئا من الانفة والعظمة ، ونبل هيئته ووسامة تقاطيعه التى تدل على نمو هرقلى على الرغم مما اصابها من نحول وذل نتيجة لعمل يومى مرهق . وتخيلت المنظر الرهيب لهذا العبد فى مجموعة وقلت لنفسى انه يمكن أن يتناسب تماما مع ملك ، وعندئذ جمعت احداثا كثيرة وربطت بينهـا وتوقفت ظنونى برعشة من الغضب على هذا العبد الوقح ، واردت ان ابحث عنه لمعاقبته ولكن لم تلبث ان عادت حيرتى الى . هل يجب ان ابنى اتهامى الخطير على مثل هذه الحجج الواهية فاسلم هذا العبد الى عمى لكى ينتقم لكبريائه رغم انه عرض نفسه للخطر لانقاذ مارى .

وفى نفس اللحظة التى ثارت فيها افكارى هذه ضد غضبى بددتها مارى تماما بأن قالت فى صوت رقيق :

ـ اى حبيبى ليوبولد ... اننا ندين لهذا الزنجى الشجاع بالعرفان والجميل ، فلولاه لكنت الآن من الهالكين ، ولاتيت انت بعد فوات الاوان ..

Looloo
www.dvd4arab.com

كان لهذه الكلمات الرقيقة اثرا قاطعا .. فهى لم تغير رغبتى فى البحث عن العبد الذى انقذ مارى ولكنها غيرت الغرض منه ، فقد كنت اريد البحث عنه لمعاقبته واصبحت اريد الاهتداء اليه الآن لمكافأته .

وعلم عمى منى انه يدين بحياة ابنته الى احد عبيده ووعدنى بان يمنحه حريته اذا استطعت الاهتـــــداء اليه بين هذا الحشد من البائسين .

— ١٠ —

وحتى ذلك اليوم ، كان الاستعداد الطبيعى لذهنى قد ابعدنى عن المزارع حيث يشتغل الرجال السود ، فقد كان يشـــق على ان ارى اناسا فى مقدورى التخفيف عنهم يتعذبون . ولكن منـــذ صباح اليوم التالى عرض على عمى ان ارافقه فى ورديته التى يقوم بهـــا للتفتيش . واسرعت بالقبـــول على أمل أن التقى بين العبيد بمنقـــذ محبوبتى مارى .

وقد استطعت ان ارى خلال هذه النزهة مدى تاثير نظرة عمى على هؤلاء العبيد ، وان اعلم فى نفس الوقت ان هذه القوة تشترى بثمن فادح ، فان الزنوج كان يتولاهم الاضطراب امام عمى ويضاعفون من جهدهم ونشاطهم ، ولكن الخوف الذى كان يبدو فى عيونهم كان يشوبه حقد دفين .

وكان عمى بطبعه سريع الغضب ، وكان على استعداد لان يحتـــد لانه لم يجد ما يستدعى غضبه فى ذلك اليوم ، عنـــدما اثارت ضحكة هابيبراه انتباهه فجاة الى رجل اسود ارهقه التعب ورقد فى اجمة صغيرة بجوار جذع نخلة . واسرع عمى الى ذلك التعس وايقظه من نومه فى غلظة وخشونه وامره أن يعود الى العمـــل فورا . واستولى الفزع على الزنجى فنهض واختفى بذلك عن شجرة

www.dvd4arab.com

صغيرة من الورد كان عمى قد استوردها من البنجال وراح يتعهدها بنفسه . وجن جنون عمى وهو يرى ان الشجرة قد تلفت ، وكان غضبه لا حد له لما اسماه كسل الزنجى فاذا به يزداد وهو يرى الشجرة الثالثة . وخرج عن طوره وفك من حزامه السوط ذى الشعب الحديدية ، وكان يحمله معه دائما اثناء طوافه ورفع ذراعه لكى يهوى بالسوط على الزنجى الذى جثا على ركبتيه طالبا الرحمة . ولم يهو السوط على الرجل ، ولن انسى ابدا هذه اللحظة فان يدا قوية اوقفت يد عمى فجأة ، وكانت هى يد الزنجى الذى ابحث عنه . وصاح صاحبها يقول :

ـ عاقبنى انا لاننى قد اهنتك الآن . ولكن اصفح عن هذا الرجل فهو لم يلمس غير الشجرة .

هذا التدخل غير المتوقع من الرجل الذى ادين له بحياة مارى ، وحركته ونظرته واللهجة الحاسمة فى صوته ، كل هذا اثار دهشتى . ولكن تهوره الكريم بدلا من ان يجعل عمى يشعر بالخجل زاده سخطا وحنقا وحول غضبه من العبد المسكين الى منقذه ، فتخلص من ذراع الزنجى الضخم وهو يعنفه ويتوعده ، ورفع سوطه من جديد لكى يضربه هو به . ولكن الزنجى انتزع السوط من يده فى هذه المرة وحطم قبضته المزودة بالمسامير كما لو كان يحطم عودا من القش ثم داس بقدمه تلك الاداة الحقيرة للتعذيب .

وتسمرت مكانى لفرط الدهشة وتسمر عمى لفرط الغضب .. كان هذا شيئا عجيبا ... ان يرى تفوذه يهان بهذه الطريقة ... واختلجت عيناه كما لو كانتا تريدان الخروج من محجريهما وارتعشت شفتاه الزرقاوان . وتامله الزنجى لحظة فى هدوء ثم قدم اليه فجأة ، وفى وقار بلطة كان يمسكها فى يده وقال :

ـ ايها الرجل الابيض ... اذا اردت ان تضربنى فاضربنى بهذه البلطة على الاقل .

ولم يستطع عمى ان يتمالك نفسه ، وكان حريا بان يلبى امنيته

www.dvd4arab.com

الزنجي بكل تأكيد ، فمد يده لكي يأخذ البلطة ولكنني كنت اسرع انيها منه فامسكت بها والقيت بها في بئر قريب . وصاح عمي في حدة :

ـ ماذا فعلت ؟

أجبته : انني انقذتك من مصيبة فانك اوشكت ان تقتل من انقذ ابنتك . انك تدين بحياة ابنتك ماري لهذا العبد ... هذا الزنجي هو الذي وعدتني ان تمنحه حريته .

لم تكن اللحظة مناسبة لكي اذكره بوعده هذا ، وقد مست كلماتي ذهن عمي المقروح ، واجابني في لهجة كئيبة :

ـ امنحه حريته ؟ .. نعم . انه استحق حريته حقا .. ولكننا سنرى اية نوع من الحرية سيمنحها له قضاة المحكمة العسكرية .

جمدت هذه الكلمات الكئيبة الدم في عروقي وتوسلت اليه انا وماري بدون جدوى . وقد جوزي العبد الذي تسبب في هذا المشهد بالجلد . اما منقذه فقد اقتيد الى زنزانات حصن جاليفيه متهما بانه رفع يده على رجل ابيض ، وهي جريمة كان يعاقب عليها دائما بالموت .

ـ ١١ ـ

ولعلكم تقدرون ايها السادة الى اي مدى اثارت هذه الظروف اهتمامي وفضولي . واستقيت المعلومات عن الاسير ، وقد كشفت لي هذه المعلومات اشياء كثيرة ، فقد قيل لي ان زملاء هذا الزنجي يبدون نحوه اعمق امارات الاحترام ، فعلى الرغم من انه كان عبد مثلهم الا انه كانت تكفيه مجرد اشارة منه لكي يسرعوا الى تلبية اوامره ... لم يولد في الاكواخ ولا يعرف احد له ابا او اما ، وقد قيل ان احدى بواخر العبيد القته في جزيرة سانتو دومينجو منذ سنوات قليلة ، وكان هذا الامر الاخير في حد ذاته يثير العجب

www.dvd4arab.com

للنفوذ الذى يمارسه على جميع زملائه ، وذلك حتى دون استثناء الزنوج الخلاسيين ، اى اولئك الذين ولدوا فى جزر الانتيل والذين كما تعلمون ايها السادة ، يكنون اشد انواع الاحتقار نحو الزنوج الكونغوليين ، وهو تعبير غير سليم وشامل يشار به فى المستعمرة الى كل العبيد الذين جيىء بهم من افريقيا .

ومع انه كان يبدو سادرا فى حزن عظيم فان قوته الهائلة مضافا اليها مرارا عجيبة ، كانتا تجعلان منه موضوعا لاكبر جائزة فى حرث المزارع ، فقد كان يدور حول السواقى باسرع مما يستطيع اى جواد ان يفعل ، بل ولمدة اطول . وكان يحدث له احيانا ان ينجز فى يوم واحد عمل عشرة رجال من زملائه لكى ينقذهم من العقاب المفروض بسبب الاهمال او التعب ، وكان محبوبا من جميع العبيد لهذا السبب ، ولكن الاحترام الذى كانوا يكنونه له كان يختلف كل الاختلاف عن الفزع الشديد الذى كان يبدو انهم يضمرونه لهايبيراه . وكان يبدو ان لاحترامهم هذا سببا خفيا .. كان اشبه بنوع من العبادة .

وقد قيل لى ايضا ان من الغريب انهم كانوا يرونه على رقة كبيرة وبساطة اكبر مع زملائه الذين كانوا يفتخرون باطاعته ، وانهم كانوا يرونه فى نفس الوقت متعاليا ومترفعا مع البعض . ومن الحق ان نقول ان هؤلاء العبيد المفضلين كانوا كحلقات اتصال ، يربطون بهم حلقة العبودية الى حلقة الاستبداد والطغيان فيضمون بذلك خسة ظروفهم الى وقاحة سلطتهم . كانوا يجدون لذة خبيثة فى ارهاقهم بالعمل والتنكيد عليهم ، ولكن كان يبدو مع ذلك انه لم يكن ينقصهم الا احترام شعور الكبرياء الذى دفع الاسير الى اهانة عمى ، فان احدا منهم لم يجرؤ ابدا على فرض عقابات مهينة عليه ، واذا حدث وان ادين وتعرض لعقاب ما فان عشرين زنجيا كانوا يهبون لتلقى الجزاء بدلا منه ، فى حين يقف هو مكانه يشهد تعذيبهم كما لو انهم لم يفعلوا الا ما يمليه عليهم الواجب ... هذا الرجل العجيب كان معروفا فى جميع الانحاء باسم توسان

Looloo
www.dvd4arab.com

كل هذه النقاط اثارت خيالى بشكل غريب . وهللت مارى التى كانت تنتفض رحمة واشفاقا لحماسى واستولى بيير و بكل حمية على اهتمامنا بحيث استقرت نيتى على رؤيته ومساعدته . وكان يجب ان اجد وسيلة لكى اتحدث اليه .

ومع اننى كنت شابا صغيرا جدا فاننى ، نظرا الى اننى ابن اخ احد كبار اثرياء مستوطنى الغابة كنت قد عينت ضابطا للمليشيا فى مدينة الاكول . وكان حصن جاليفيه يقع تحت اشرافهم واشراف فرقة من الغربان كان على راسها ضابط صف يشرف عادة على الحصن . وقد اتفق ان كان هذا الضابط فى ذلك الوقت بالذات ابن اخ مستوطن فقير كان من حسن حظى اننى اديت له خدمات كبيرة ، وكان مخلصا لى كل الاخلاص .

قاطع جميع المستمعين دوفرنى عند هذه النقطة ، فقد تملكهم ذلك الانفعال الذى يدل على ان القصة قد استحوذت على اهتمامهم . وقال احدهم معبرا عما يشعر به الجميع :

- لا ريب ان هذا الضابط صف كان ثاديه ؟

استانف النقيب قصته قائلا : انكم اصبتم التخمين . وستفهمون دون مشقة انه لم يتعذر على الحصول منه على اذن بدخول زنزانة الزنجى ، فقد كان لى الحق فى زيارة الحصن بصفتى قائدا للمليشيا. ومع ذلك ، ولكى لا اثير شبهات عمى الذى كان غضبه لا يزال فى حدته حرصت على ان اذهب اليه فى الوقت الذى يهجع فيه الى فيلولته . وكان جميع الجنود نائمين فيما عدا الحراس . وقادنى ثاديه الى الزنزانة وفتح بابها ثم انسحب . ودخلت .

كان الاسود جالسا لانه لم يكن يستطيع الوقوف بسبب قامته المديدة . ولم يكن وحده بل كان معه كلب ضخم نهض وهو يزمجر وتقدم نحوى . ولكن الاسود صاح به : راسك !

Looloo
www.dvd4arab.com

وسكت الكلب على الفور وعاد فرقد عند قدمى سيده حيث فرغ من التهام بعض الطعام الحقير . وكنت مرتديا ثيابى العسكرية ، وكان النور المنبعث من نافذة الزنزانة الضيقة ضعيفا بحيث ان بيرو لم يكن باستطاعته تمييز ملامحى .

قال يخاطبنى فى صوت هادىء : أننى مستعد .

واذ فرغ من هذه العبارة قام نصف قومة وعاد يقول : انى مستعد .

قلت له وقد دهشت وانا اره حرا فى حركاته : كنت اظن انك مكبل بالسلاسل الحديدية .

وكان صوتى يتهدج لفرط الانفعال . وبدا ان السجين لم يعرف صوتى فقد دفع بقدمه بضع بقايا اصدرت رنينا وقال : السلاسل الحديدية ؟ .. انى حطمتها .

وكان فى اللهجة التى نطق بها هذه الكلمات شيئا بدا كانه يقول : « انى لم اخلق لكى اكبل بالسلاسل » . وعدت اقول :

— ولم يقل لى احد انهم تركوا معك كلبا .

— بل انا الذى ادخلته .

ازدادت دهشتى . فان باب الزنزانة كان مغلقا من الخارج برتاج ضخم ، وكان عرض النافذة لا يزيد عن ست بوصات ، ثم انها كانت مزودة بقضيبين من الحديد . ويبدو انه ادرك ما يجول برأسى لانه نهض بقدر ما سمحت له القبة المنخفضة ونزع دون اى جهد حجرا ضخما تحت النافذة ورفع القضيبين الحديدين المثبتين بهذا الحجر محدثا بذلك فتحة يمكن لرجلين ان يمرا منها بسهولة . وكانت هذه الفتحة تفضى الى غابة من اشجار الموز وجوز الهند تكسو التل الذى شيد الحصن فوقه .

الجمتنى الدهشة . وفجأة سقط ضوء النهار على وجهى بحدة واعتدل السجين كما لو انه وضع قدميه سهوا على ثعبان ، وارتطم جبينه بأحجار القبة وارتسم على وجهه مزيج من المشاعر المختلفة

Looloo
www.dvd4arab.com

المتناقضة ، وبدت في عينيه نظرة غريبة فيها تعبير من الحقد والعرفان والدهشة المؤلمة . ولكن سرعان ما تمالك نفسه وعاد الهدوء والبرود الى وجهه في اقل من دقيقة ، وحدق في وجهي في غير اكتراث وواجهني كما لو كنت غريبا عنه وقال :

ـ استطيع ان اعيش يومين آخرين من غير ان اتناول اي طعام .

اتيت بحركة تدل على الاستنكار ، ولاحظت عندئذ مدى نحول الرجل . واردف هو يقول :

ـ كلبي لا يستطيع ان ياكل الا من يدي ، ولو لم اوسع النافذة لمات المسكين من الجوع ... ومن الخير أن اموت انا لا هو ما دام يجب ان اموت .

صحت : كلا ، كلا . انك ان تموت من الجوع .

لم يفهمني وعاد يقول وهو يبتسم بمرارة :

ـ في مقدوري بلا شك ان اعيش يومين آخرين دون ان اتناول طعاما ، ولكنني على استعداد الآن يا سيدي الضابط ، فاليوم خير من الغد . ولكن لا تؤذ راسك .

ادركت عندئذ معنى ما يقصده من قوله بانه على استعداد ، فقد كان متهما بجريمة عقوبة الموت ، وحسب انني أتيت لكي اقتاده الى ساحة الاعدام . وراح هذا الرجل الموهوب بهذه القوة الهائلة يقول في هدوء وفي رقة طفل « انني على استعداد » مع ان كل وسائل الهرب كانت متوفرة لديه .

وقال للمرة الثانية : لا تؤذ راسك .

ولم استطع ان اتمالك نفسي عندئذ فقلت : ما هذا .. انت لا تحسبني جلادك فحسب . وانما تشك في انسانيتي نحو هذا الكلب المسكين الذي لم يفعل بي شيئا ؟

لانت ملامحه وتغير صوته وهو يقول باسطا لي يده :

ـ اغفر لي ايها الرجل الابيض .. فانني احب هذا الكلب .

واردف يقول بعد صمت قصير : ان الرجال البيض الآخرين قد الحقوا بي اكبر الاذى .

Looloo
www.dvd4arab.com

عانقته وضغطت على يده وقلت فى رفق : الا تعرفنى ؟

ـ كنت اعرف تماما انك ابيض ، والزنجى بالنسبة للبيض - مهما كانت طيبتهم شيء تافه . وعلى كل حال فان هناك ما اشكوه منك .

قلت مشدوها : وما هو ؟

ـ الم تحفظ لى حياتى مرتين ؟

جعلتنى هذه التهمة الغريبة ابتسم ، واذ راى ذلك استطرد يقول فى لهجة مريرة :

ـ نعم ... كان يجب ان احقد عليك ، فانك انقذتنى من تسماح ومن مستوطن . وشر من هذا انك سلبتنى حق كراهيتك .. انى تعيس تماما .

لم تدهشنى لهجته ابدا ولا افكاره الغريبة ، فقد كانت تتناسب معه ، وقلت له :

ـ انى ادين لك باكثر مما تدين انت لى به . انى ادين لك بحياة خطيبتى مارى .

بدا كان ماسا كهربيا قد اصابه وقال فى صوت مكتوم : ماريا !

وتهاوت راسه فوق كتفيه اللذين توترا بحدة فى حين ندت من صدره زفرات مضنية .

واعترف ان شكوكى الهاجعة عادت واستيقظت ، ولكن دون اى غضب او اية غيرة ، فقد كنت اقرب الى السعادة ، وكان هو اقرب الى الموت بحيث لا يمكن لهذا الغريم ، اذا كان هو غريمى حقا ، ان يثير فى نفسى اية مشاعر اخرى غير العطف والرثاء .

ورفع راسه وقال : صه .. لا تشكرنى .

واردف يقول بعد فترة صمت : ومع ذلك فانا لست دونك مرتبة وجاها .

كشفت لى هذه الكلمات ناحية فيه اثارت فضولى بطريقة كبيرة ، واستحلفته ان يخبرنى من هو وما يعانيه من آلام وعذاب ولكنه التزم صمتا تاما .

Looloo
www.dvd4arab.com

وتاثر كل التاثر بمسعاى وبعروضى لخدمته ، وتغلبت توسلاتى على تقززه واشمئزازه من الحياة فخرج واتى ببعض الموز وبجوزة هند كبيرة ثم اغلق الفتحة وراح ياكل . وفيما انا اتحدث معه لاحظت انه يتكلم الفرنسية والاسبانية بطلاقة تامة وانه ذكى جدا ويعرف اشياء كثيرة . كان يعرف اغان اسبانية كان يترنم بها ويعبر عن معانيها تعبيرا جيدا . كان هذا الرجل غامضا من كل النواحى بحيث لم تدهشنى ثقافة لغته وحاولت من جديد ان اعرف السبب ولكنه اطبق فمه .

وغادرته اخيرا وامرت صديقى المخلص تاديه ان يوليه كل رعاية وكل عناية ممكنة .

— ١٣ —

كنت امضى كل يوم ، وفى نفس الوقت لزيارة السجين . فقد شغلتنى قضيته . وعلى الرغم من توسلاتى تشبث عمى برايه فى مقاضاته ، ولم اخف مخاوفى عن بيير ، ولكنه كان يصغى الى فى غير اكتراث .

وكان راسك ياتى احيـــانا ونحن معا وحـول عنقه ورقة كبيرة من اوراق النخيل ، وكان الزنجى يكفها ويقرا الرسالة المكتوبة عليها بحروف غريبة ثم يمزقها . واعتدت الا القى عليه اى سؤال .

ودخلت ذات يوم دون ان ينتبه الى ، فقد كان موليا ظهره لباب زنزانته ، وكان يترنم فى رفق باغنية حزينة باللغة الاسبانية ومطلعها « انما انا المهرب » وعندما فرغ منها تحول الى وقال :

— ايها الاخ العزيز ، اذا اتفق وارتبت بى فعدنى ان تبعد ريبتك عندما تسمعنى اغنى هذه الاغنية .

وكانت نظرته فاترة فوعدته بما يريد دون ان ادرى ما يعنيه بقوله هذا « اذا اتفق وارتبت بى » ، واخذ تشرة جوز الهند العميقة

Looloo
www.dvd4arab.com

التي جاء بها اول يوم وملأها بنبيذ مصنوع من البلح وطلب مني أن اغمس شفتي فيها ثم افرغيا في جوفه مرة واحدة ، ومنذ ذلك اليوم لم يخاطبني الا بأخيه .

ومع ذلك فقد بدا الامل يداخلني من أجله . فان حدة عمي هدأت وتحولت احتفالات زواجي القريب بابنته كل افكاره . وانضمت مارى الي . وكنت اقول له كل يوم ان بيير لم يقصد اهانته وانما اراد منعه من ارتكاب عمل مفرط في القسوة ، وان هذا الرجل الاسود ، بمعركته الجريئة مع التمساح قد انقذ مارى من موت مؤكد ، واننا ندين له . هو بابنته وانا بخطيبتي . وان بيير على كل حال اشد عبيده قوة (فانني لم اعد احلم بالحصول على حريته واصبح الامر يتعلق الآن بحياته) وان في استطاعته ان ينجز عمل عشرة رجال آخرين وان ذراعه كاف لكي يدير اسطوانات طاحونة السكر . وكان عمي يصغي الي ويداخلني الامل بذلك بانه قد يتنازل عن دعواه .

ولم اقل للاسود شيئا عن التبدل الذي طرأ على عمي لانني اردت ان ارى سروره بحصوله على حريته التامة اذا تمكنت من ذلك . وان ما اثار دهشتي هو ان ارى انه على الرغم من معرفته بأن مصيره الموت لم ينتهز اية وسيلة من وسائل الهرب المتاحة له . وتحدثت اليه في ذلك فاجابني في برود :

ـ يجب ان ابقى فقد يخطر لهم انني خائف .

ـ ١٤ ـ

وذات صباح جاءتني مارى مشرقة الوجه .. كانت قسماتها الحلوة تنطق بشيء اكثر ملائكية من فرحة حب ظاهر ، الا وهو فكرة عمل طيب ينم عن الخير .

قالت لي : اصغ الي . ان يوم ٢٢ اغسطس بعد ثلاثة ايام . وهو يوم زفافنا ، وسنكون قريبا .

Looloo
www.dvd4arab.com

قاطعتها قائلا : لا تقولى قريبا ، فما زالت هناك أيام ثلاثة .

ابتسمت واضطرم وجهها وقالت : لا تجعلنى ارتبك يا ليوبولد . لقد خطرت ببالى فكرة سوف تسرك . انك تعلم انني مضيت امس الى المدينة برفقة ابى لشراء مجوهرات زواجى ، وليس ذلك لاننى اتمسك بهذه الحلى وهذه الماسات ، فهى لن تجعلنى اجمل مما انا فى عينيك ، وانى لامنح كل درر العالم من اجل زهرة واحدة من هذه الزهور التى داسها ذلك الرجل البشع صاحب باقة الاقحوان. ولكن لا اهمية لهذا . ان ابى يريد ان يغمرنى بكل هذه الاشياء ، وانا اتظاهر بانني اريدها لا لشىء الا لاسعاده .. صفوة القول . رايت امس فستانا جميلا من الساتان الصينى بزهور كبيرة فى صندوق من الخشب النفيس ، وقد وقفت اتامله طويلا ... وهو فستان غال جدا ولكنه عجيب ، وقد لحظ ابى انه راق لى . وفى طريق عودتنا سالته ان يهبنى هبة على طريقة فرسان العصور القديمة ، وقد اقسم بشرفه انه لن يرد لى طلبا مهما يكن ظنا منه انني اريد هذا الفستان .. ولكن لا .. ان ما اريده هو حياة بيرو .. ستكون هذه هدية زفافى .

لم يسعنى الا ان اضم هذا الملاك بين ذراعى ، فان كلمة عمى مقدسة . وبينما كانت مارى تمضى لتطالبه بتنفيذ وعده اسرعت انا الى حصن جاليفيه لابلغ بيرو بان حريته اصبحت اكيدة .

صحت وانا ادخل : اى اخى .. ابشر ، فانك نجوت . طلبت مارى حياتك من ابيها هديه بمناسبه زفافها .

أجفل العبد وقال : مارى ! .. زفاف .. حيـــاتى .. كيف يمكن ان يتفق كل هذا ؟

قلت : الامر بسيط جدا .. ان مارى التى انقذت انت حيـــاتها ستتزوج .

صاح العبد وقد شردت عيناه وبدا فيهما الروع : بمن ؟

اجبت فى رفق : الا تعرف ؟ بى انا .

Looloo
www.dvd4arab.com

لانت قسمات وجهه عندئذ وقال فى استسلام : آه ... هذا صحيح ... بك انت ! .. وفى اى يوم ؟

ـ يوم ٢٢ اغسطس .

صاح فى فزع : ٢٢ اغسطس ؟ .. هل انت مجنون ؟

وامسك عن الكلام ، فنظرت اليه مشدوها . وبعد صمت قصير شد على يدى فى قوة وقال :

ـ اخى .. انى ادين لك بالكثير بحيث لابد لى أن انصحك .. صدقنى .. امض الى الكاب وتزوج قبل يوم ٢٢ اغسطس .

اردت ان اعرف معنى هذه الكلمات الغامضة ، ولكن راحت كل محاولاتى عبثا . وقال اخيرا فى لهجة خطيرة :

ـ وداعا . لعلنى قلت الكثير ولكننى لا اكره شيئا مثلما اكره الجحود والحنث باليمين .

غادرته وكل تردد وقلق . ولكننى لم أليث أن نسيتهما فى غمرة سعادتى .

وسحب عمى شكواه فى نفس اليوم ، وعدت الى الحصن لاطلاق سراح بييرو . واذ علم تاديه بان العبد اصبح حرا دخل معى الزنزانة ، ولكن بييرو لم يكن بها . وكان راسك موجودا وحده فاسرع الى يتمسح بى ؛ وكانت فى عنقه ورقة نخيل فاخذتها وقرات فيها هذه الكلمات : شكرا . انك انقذت حياتى للمرة الثالثة . لا تنس وعدك يا اخى .. وكان التوقيع تحت هذه الكلمات هو « انما انا المهرب » .

كان تاديه اشد منى دهشة ، ولم يكن على علم بسر النافذة فتوهم ان الزنجى تحول الى كلب ؛ وتركته يعتقد ما يشاء مكتفيا بان اطالبه بالصمت على ما رآه .

واردت ان اصحب راسك معى ، ولكنه ما ان القى نفسه خارج الحصن حتى اخذ يعدو نحو السياج ولم يليث ان اختفى .

Looloo
www.dvd4arab.com

استاء عمى لفرار العبد واصدر اوامره بالبحث عنه وكتب الى المحافظ يطلب منه ان يضع بيرو تحت تصرفه اذا عثروا عليه .

واقبل يوم ٢٢ اغسطس . وكان الاحتفال بزواجي بمارى احتفالا فخما فى كنيسة « الاكول » ، وما كان اسعد ذلك اليوم الذى توالت بعده كل مصائبى . كنت ثملا بفرح لا يمكن لاحد ان يشعر به الا اذا مر بما مررت به . وكنت قد نسيت بيرو وتحذيراته المشئومة تماما . وهبط الشفق على هذا اليوم واضطررت ان انتزع نفسى من بهجتى لان واجبا مملا وضروريا فى نفس الوقت كان يستدعينى ؛ فان وظيفتى كضابط للمليشيا كانت تتطلب منى أن اقوم فى هذه الليلة بداورية عند ابواب الاكول . وكان هذا احتياطا عسكريا لابد منه لان الاضطرابات قامت فى الجزيرة فجاة ، وتمرد السود فى اماكن كثيرة ، ولا ريب ان هذا التمرد قد تم كبحه فورا ولكن المستعمرة كلها كانت تغلى بالاضطرابات منذ شهر يوليو ؛ فقد صدر الحكم باعدام الخلاسى الحر اوجيه ، احد زعماء المتمردين ونفذ الحكم فازدادت كراهية السود ونقمتهم ازاء هذا الانتقام الدامى .

وكان عمى اول من ذكرنى بواجبى ، فخضعت على الرغم من مشقة الفراق وارتديت ثيابى الرسمية ورحلت .

زرت المواقع الاولى دون ان القى ما يحمل على القلق . وكنت اسير فى منتصف الليل وانا اهيم فى دنيا الاحلام ، بجوار بطاريات الخليج ، عندما رايت فى الافق وميضا احمر يرتفع ويمتد من ناحية ليموناد وسان لويس دى موران . ونسبته انا وجنودى فى بادىء الامر الى حريق طارىء ، ولكن النيران لم تلبث ان اشتدت وضوحا وتضخم الدخان الذى تدفعه الرياح وتكثف بحيث لم اجد بدا من الاسراع الى الحصن للانذار وارسال نجدة . وفيما انا امر باكواخ عبيدنا السود دهشت اذ رايت اضطرابات غريبة تجرى فيها . كان

Looloo
www.dvd4arab.com

اغلبهم مستيقظين ويتكلمون فى انفعـــال كبير ، وكان يدور على السنتهم اسم غريب كانوا ينطقونه فى احترام كبـــير وهو اسم « بوج جارجال » وسمعت بضع كلمات بدا لى من معناها ان السود فى الشمال ثائرون وانهم يحرقون المســـاكن والمزارع الكائنة فى الناحية الاخرى من الكاب . وبينما كنت اعبر طريقا موحلا ارتطمت قدمى بكتلة من الفئوس مخبوءة بين الاعشاب . واستولى على القلق على الفور وامرت جنود المليشيا بحمل السلاح وبمراقبة العبيد . وعاد كل شيء الى الهدوء .

ومع ذلك فقد بدا ان الاضرار تزداد فى كل لحظـة وتقترب من ليمبيه . بل انني اعتقد انني تبينت اصوات الدفعية وتبادل اطلاق النيران فى نحو الساعة الثانية صباحا ولم يستطع عمى وقد ايقظته قبل ذلك ، ان يتمالك هدوءه وامرنى ان اترك فى الاكول عددا من جنود المليشيا تحت قيادة الملازم وان امضى الى الكاب . وبينما كانت محبوبتى المسكينة مارى تنام اطعت عمى ، وكان كما سبق القول عضوا فى مجلس القرية ، وابتعدت مع بقية جنودى .

ولن انسى ابدا منظر المدينة وانا اقترب منهـــا ، فقد كانت النيران تلتهم مساكنها وراحت تمتد بصورة بغيضة ، تسودها سحب من الدخان الذى تطرده الريح فى الشوارع . وتكومت عواصف من الشرر من البقايا الصغيرة المشتعلة من اعواد قصب السكر تدفعها الرياح فى عنف ككتل غزيرة من الثلج فوق اسطح المنازل وفوق السفن الراسية فى المرسى مهددة فى كل لحظة مدينة الكاب بحريق مؤسف اكثر اتساعا من الحرائق التى شبت فى ضواحيها .

كان منظرا رهيبا وفظيعا ، فمن ناحية ، الاهالى يعرضون حياتهم لانقاذ السقف الوحيـــد الذى سيبقى لهم من كل ثرواتهم من الحريق ، ومن ناحية اخرى السفن التى تخشى نفس المصير والتى كان من حظها على الاقل ان الرياح المشئومة كانت تبتعد مسرعة نحو بحر مصبوغ بنيران الحرائق الدامية .

Looloo
www.dvd4arab.com

تملكنى الذهول وانا اسمع صوت مدفع الحصن وصياح الهاربين ودوى الانهيارات ، ولم ادر الى اية جهة اوجه جنودى عندما التقيت فى ساحة العرض العسكرى بضابط الفرسان الصغر الذى تولى ارشادنا . ولن اتوقف ايها السادة لكى اصف لكم هول المنظر الذى طالعنا به السهل المحترق فان كثيرين غيرى وصفوا الكوارث التى تعرضت لها مدينة الكاب واود ان امر على هذه الذكريات الاليمة بالدم والنار ، ويكفينى ان اقول لكم ان العبيد المتمردين قد اصبحوا سادة مناطق كثيرة هامة وبعض المزارع الكبيرة فى ليمبيه ، وهذا ما جعلنى اشعر بالقلق بسبب قربها من الاكول .

واسرعت الى مقر المحافظ ، السيد دى بلانشلاند على الفور . كانت الفوضى سائدة والارتباك عاما ، حتى فى راس المحافظ نفسه . واستفسرت عن اوامره وانا ارجوه ان يفكر فى اسرع وقت فى امان الاكول وسلامتها ، لان الخطر كان يتهددها بصفة عاجلة . وكان المحافظ مجتمعا بمسيو دى روفراى ، مارشال المدينة واحد كبار الجزيرة الرئيسيين ، وبمسيو دى تروزار ، الكولونيل بفرقة الكاب وببعض اعضاء الجمعيتين المتنافستين ، الاستعمارية والقروية ، وكبار المستعمرين . وفى اللحظة التى قدمت نفسى فيها كان المجتمعون يتداولون فى صخب كبير .

قال احد اعضاء الجمعية القروية : سيدى المحافظ ، لا يجب ان نبعد عن الحقيقة . ان العبيد هم المتمردون وليس الخلاسيين الاحرار . وقد اعلنا ذلك منذ وقت طويل وتوقعناه .

قال احد اعضاء الجمعية الاخرى : ولكنكم اعلنتم ذلك عن غير ايمان . اعلنتموه لكى تظهروا على حسابنا ، وكنتم تستبعدون تماما اى تمرد حقيقى للعبيد . ان دسائس جمعيتكم هى التى اثارت سنة ١٧٨٩ تلك الثورة السخيفة المزرية التى قام بها بضعة آلاف اسود

www.dvd4arab.com

فى مدينة الكاب والتى لم يقتل فيها غير متطوع واحد ، فضلا عن ان زملاءه هم الذين قتلوه .

رد عليه الاول قائلا : اكرر لك اننا نرى الموقف فى وضوح اكثر منكم .

ـ انما انتم الذين الهيتم بمبالغاتكم راس هذا المسكين الذى ظهر فى المقهى بدون الشارة الوطنية ، وانتم الذين قتلتم الخلاس لاكومب لانه قدم عريضة تبدا بهذه الكلمات التى لم يعد احد يستخدمها : باسم الرب والروح القدس .

ـ هذا كذب . انما هى معركة المبادىء والامتيازات .

ـ طالما فكرت يا سيدى فى انك رجل مستقل .

ولعل المعركة كانت تبلغ الى ابعد من هذا لو لم يتدخل المحافظ فيقول :

ـ ايها السادة ... هل يمكن اكل هذا الجدل ان يدرأ الخطر عنا لا ارجو ان تنصحونى لا ان تتبادلوا السباب . ها هى التقارير التى بلغتنى . لقد بدا العصيان الليلة فى الساعة العاشرة مساء بين زنوج مزرعة توربان . وكان على راس العبيد زنجى انجليزى يدعى بوكمان ، وقد استمال عبيد المزارع المجاورة فانضموا الى صفوفه وحرقوا كل المزارع وذبحوا المستعمرين بقسوة لا مثيل لها . وستفهمون هول المصاب حين اقول لكم ان علمهم كان جسد طفل معلق فوق رمح .

قاطعت مسيو دى بلانشلاند رعدة سرت بين مستمعيه . ولكنه لم يلبث ان استانف حديثه فقال :

ـ هذا هو ما يحدث فى الخارج . اما فى الداخل فيسود الاضطراب الشديد ، فقد قتل كثير من اهالى الكاب عبيدهم ، واحالهم الخوف قساة غلاظ القلوب ؛ واكثرهم هدوءا او اشجعهم اكتفوا بحبس عبيدهم فى اكواخهم . والبعض يتهم الخلاسيين الاحرار بهذه الجرائم . وكثير من المولدين اوشكوا ان يروحوا

Looloo
www.dvd4arab.com

ضحايا لغضب الشعب . وقد عرضت عليهم الاحتماء بالكنيسة التي تحرسها فرقة من الجنود . وهم يطالبونني الآن بأن اعطيهم موقعا واسلحة للدفاع عنه لكي يبرهنوا لي انهم غير متآمرين مع العبيد المتمردين .

صاح صوت لم البث ان عرفت فيه صوت المزارع المشتبه في انه من الخلاسيين والذي تبارزت معه .

ـ كلا ... لا تفعل يا سيدي المحافظ .. لا تعط الخلاسيين اية اسلحة .

سأله احد المستعمرين في حدة : انت اذن لا تريد ان تقاتل ؟

ولكن يبدا ان الآخر لم يسمعه واستطرد يقول : ان الخلاسيين هم الد اعدائنا . انهم هم وحدهم الذين يجب ان نخشى بأسهم . وانني أوافقك على انه لا يمكن ان نتوقع اي تمرد من ناحيتهم وانما يجب ان نتوقعه من ناحية العبيد ، والعبيد ليسوا بشيء يذكر .

كان المسكين يظن انه يتبرأ من الخلاسيين بقوله هذا وانه يقوض في اذهان الذين يصغون اليه الراي العام الذي يضمه الى هذه الزمرة المحتقرة . وكان في قوله هذا كثير من الجبن بحيث انه لم يكن يمكن ان يفلح . وسرت بين الجميع همسات استنكار جعلته يفهم ذلك ، وقال الماريشال دي روفراي ، وهو رجل تقدمت به السن .

ـ كلا ايها السيد .. ان العبيد شيء يجب ان تحسب لهم كل حساب ... فهم اربعون مقابل واحد ، ونحن هالكون لا محالة اذا لم نجد من يقاوم العبيد والخلاسيين غير البيض من امثالك .

عض المستعمر على شفته ، وعاد المحافظ يقول : سيدي الجنرال ، ما رايك اذن في الطلب الذي قدمه الخلاسيون ؟

اجاب مسيو دي روفراي : اعطهم ما يريدون من اسلحة يا سيدي المحافظ .. علينا ان نواجه كل الاحتمالات .

وتحول الى المستعمر المشكوك في امره وساله : اسمع يا سيدي . هل ستحمل السلاح ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

وعندئذ خرج المستعمر المهان وهو يتميز من الغضب .

ومع ذلك فان اصوات الاضطراب التي تدور في انحاء المدينة كانت تسمع في كل لحظة وحتى مقر المحافظ . وكانت تعيد الى اذهان الرجال المجتمعين الموضوع الذي يشغلهم . واعطى مسيو دي بلانشلاند لمساعده امرا كتبه على عجل بالقلم الرصاص ، وقطع الصمت الكئيب الذي اطبق على المكان بان قال :

ـ سوف يتسلح الخلاسيون ايها السادة . ولكن ما زالت هناك اجراءات اخرى لابد من اتخاذها .

تدخل مستعمر من بين العدد القليل الذي يشترك مع جنود الثورة ويدعو نفسه المواطن جنرال كادو وكان معروفا عنه انه سبب بعض الاجراءات الدامية وقال :

ـ احرى بنا ان نعذب المتمردين لا ان نقاتلهم . ان الامم تريد امثلة . فلندخل الرعب في قلوب السود . انا الذي اخمدت ثورتي يونية ويولية بان نصبت خمسين راسا من العبيد على جانبي الشارع الذي اقطن فيه . فلينضم كل منكم الى الاقتراح الذي اعرضه عليكم الآن . لندافع عن مدينة الكاب بالزنوج المتبقين لدينا .

صاح الجميع في صوت واحد : وكيف هذا ؟ .. ما هذه الوقاحة !

عاد المواطن جنرال يقول : انكم لا تفهمون ايها السادة . لننصب سياجا من رءوس العبيد يحيط بالمدينة ، ابتداء من حصن بيكوليه حتى راس كاراكول . لن يجرؤ المتمردون على الاقتراب عندئذ . يجب ان نضحي من اجل القضية العامة في مثل هذه اللحظة ، وانني اول من يسبقكم الى العمل . ان لدي ٥٠٠ عبد لم ينضموا الى المتمردين ، وانني اقدمهم لكم .

سرت همسات الفزع ازاء هذا الاقتراح البغيض وتمتم الجميع :

ـ هذا فظيع .. هذا امر بشع .

قال احد المستعمرين : ان مثل هذه الاجراءات هي التي اضاعت كل شيء . لو اننا لم نتسرع ونعدم متمردي يونيه ويوليه واغسطس

Looloo
www.dvd4arab.com

لامكننا ان نمسك بخيط مؤامرتهم الذى قطعه سيف الجلاد .

لزم المواطن كادو الصمت لحظة لفرط الغيظ ثم تمتم بين اسنانه :

ـ كنت اظن اننى غير مشبوه مع ذلك ، اننى مرتبط بجماعة من محبى الزنوج .

ولثالث مرة طلب مسيو دى بلانشلاند ان يمده الحاضرون بنصائحهم :

وقال احدهم :

ـ اليك رايى يا سيدى المحافظ . فلنستقل جميعا الباخرة ليوبار الراسية فى الميناء .

وقال آخر : فلنرصد مكافاة لمن ياتينا براس بوكمان .

وقال ثالث : لنطلع محافظ جمايكا على ما يدور .

قال رابع : آه ، نعم . لكى يرسل لنا خمسمائة بندقية كما فعل فى المرة السابقة ... سيدى المحافظ ، ارسل اخطارا الى فرنسا ولننتظر .

قاطعه مسيو دى روفراى فى حدة : ننتظر .. ننتظر .. والسود ؟ هل ينتظرون ؟ .. والنيران التى تحيط بالمدينة ؟ .. هل ننتظر ؟ .. مسيو دى تواوز ، دق الطبول وخذ المدافع واسحق المتمردين بقنابلك وجنودك . وانت يا سيدى المحافظ ، اقم المعسكرات فى كنائس الشرق وفى ترودى فالبير . اما انا فانني ساتكفل بسهول حصن دوفان وسأقود المعارك . ان لى بعض الخبرة فى شئون الدفاع . على ان سهول دوفان يكاد يحيط بها البحر والحدود الاسبانية وتبدو كشبه جزيرة تحمى نفسها بنفسها .. ونفس الميزة تتميز بها شبه جزيرة مول . لنستخدم كل هذا ولنتصرف .

نطق القائد الشيخ بكلماته هذه فى حزم وثبات بحيث اسكت كل الخلافات . وكان الجنرال على حق فان ادراك كل واحد منهم بمصلحته الحقيقية ربط كل الآراء براس مسيو دى روفراى . وبينما

Looloo
www.dvd4arab.com

كان المحافظ يشد على يد الضابط الشجاع فى امتنان ويقول له انه يقدر قيمة نصائحه على الرغم من انه نطق بها بصيغة الآمر ؛ ويقدر اهمية مساعدته راح كل المستعمرين يطالبون بسرعة تنفيذ الاجراءات المذكورة .

وانتهزت هذه اللحظة لكى احصل من مسيو دى بلانشلاند على الاوامر التى كنت التمسها بفروغ صبر ، وخرجت اخيرا للانضمام الى فرقتى والعودة فورا الى الاكول على الرغم من التعب الذى كان يحس به الجميع فيما عداى .

— ١٧ —

كان النهار قد بدأ يطلع حين بلغت ساحة العرض العسكرى وايقظت الجنود الذين رقدوا فى غير نظام فوق معاطفهم ، مع الهاربين من السهول ، والبهائم التى راحت تثغو وتخور ، ومختلف الامتعة التى احضرها الهاربون معهم . وكنت قد عثرت على فرقتى الصغيرة بين الجموع عندما رايت فارسا اصفر يتصبب عرقا ويقطبه الغبار يسرع الى فمضيت للقائه وعرفت من الكلمات القلائل التى افلتت من بين شفتيه فى جزع ان مخاوفى قد تحققت وان الثورة قد امتدت الى سهول الاكول وان السود يحاصرون حصن جاليفيه الذى احتمى فيه جنود المليشيا والمستعمرون . ويجب ان اقول لكم ان حصن جاليفيه لم يكن حصنا بمعنى الكلمة ، وانهم كانوا يطلقون هذا الاسم على أى معسكر يقع خلف التلال .

لم يكن بمقدورى ان افقد لحظة واحدة اذن ، ولهذا جمعت ما استطعت من جياد وبعض جنودى وبلغت املاك عمى فى نحو الساعة العاشرة تحت ارشاد الفارس الاصفر .

والقيت نظرة عابرة الى هذه المزارع الشاسعة التى لم تكن فى هذه اللحظة غير بحر من النيران ، تنتشر فيها امواج كبيرة من الدخان

www.dvd4arab.com

كانت الريح تدفع اليها من وقت لآخر ، كشرارات ، جذوع اشجار كبيرة مشتعلة . وبدا كان فرقعة كبيرة تمتزج بل انهيارات ودوى ترد على ولولة السود البعيدة التى كنا نسمعها قبل ان نراهم .

ولم تكن لدى انا غير فكرة واحدة لم يستطع ان يبعدنى عنها اختفاء تلك الثروات التى كانت مقدرة لى ، وهذه الفكرة هى سلامة مارى ، فما كان ليهمنى اى شىء لو ان زوجتى ماتت . وكنت اعرف انها موجودة فى الحصن ، ولم اطلب من الله الا ان اصل فى الوقت المناسب . كان هذا الامل وحده يشد ازرى فى اضطرابى ويمدنى بشجاعة وقوة اسد .

وبلغنا اخيرا منحنى الطريق استطعنا ان نرى منه حصن جاليفيه . كان العلم الثلاثى الالوان لا يزال يرفرف على سطحه ، ونار متاججة تحيط بجدرانه . واطلقت صيحة فرح وصحت بزملائى :

ـ اسرعوا .. اسرعوا ...

وضاعفت من سرعتى ومضينا خلال الحقول نحو الحصن الذى رابتا فى اسفله بيت عمى . كانت ابوابه ونوافذه محطمة . ولكنه كان لا يزال قائما يتوهج بانعكاسات الحريق الذى لم يصل اليه لان الريح كانت تاتى من البحر ولانه كان فى مكان منعزل عن المزارع .

وكان هناك زنوج كثيرون مختبئون فى هذا البيت بدوا فى نفس الوقت فى النوافذ وعلى السطوح . وكانت المشاعل والحراب والفئوس تلمع وسط حلقات البنادق التى كانوا لا يكفون عن اطلاقها على الحصن بينما كان عدد كبير آخر من زملائهم يصعد ويقع ويعود فينهض من جديد دون انقطاع حول الجدران المحاصرة التى نصبوا السلالم بجوارها .

هذا الجمع من السود الذين يصدهم الجنود ويعودون فيهجمون من جديد كانوا من بعيد اشبه بخلية من النمل تحاول اختراق قشرة سلحفاة كبيرة ويحاول هذا الحيوان البطىء التخلص منها من وقت لآخر بهزة منه .

Looloo
www.dvd4arab.com

وبلغنا اخيرا الخنادق الاولى التى تحيط بالحصن .

ورحت ، وعيناى لا تفارقان العلم الذى يرفرف فوق سطح الحصن اشجع جنودى واستحثهم باسم عائلاتهم المحصورة بين جدرانه كعائلتى انا والتى نسعى لنجدتهم . وردوا على فى صيحة واحدة واصطفوا فى صف واحد وهممت بأن اصدر اليهم امرى بالهجوم ، ولكن ارتفعت من داخل الحصن فى هذه اللحظة بالذات صيحة هائلة اعقبها اعصار من الدخان احاط بالحصن كله ولف جدرانه بعض الوقت . وسمعنا صخبا اشبه بذلك الذى يصدر عن آتون مستعر ،وما انقشعت حتى رايت حصن جاليفيه يرفرف عليه علم احمر . . . علم المتمردين المنتصرين .

وهكذا انتهى كل شىء .

— ١٨ —

والآن اسمحوا لى ايها السادة ان امر مر الكرام على المشاعر التى عانيتها امام هذا المنظر الرهيب . غير اننى اعترف لكم دون خجل اننى لم اعبأ لحظة واحدة بالحصن الذى سقط ولا بالجنود الذين قتلوا ولا بالعشرين اسرة التى ذبحت . فقد ضاعت مارى منى الى الابد، بعد ساعات قلائل من زفافى اليها ، وانا السبب لاننى لو لم اتركها فى الليلة السابقة لكى اسرع الى الكاب انصياعا لامر عمى لاستطعت ان انقذها على الاقل او ان اموت بجوارها ومعها فلا افقدها . هذه الافكار الكئيبة سببت حزنى حتى اوشكت ان اجن ، وكان ياسى ندما وتحسرا .

ومع ذلك ، فقد بلغ الغضب بزملائى الى حد انهم صاحوا ينادون بالانتقام . واسرعنا ، وسيوفنا فى اسنانا ومسدساتنا فى ايدينا وسط المتمردين . وعلى الرغم من انهم كانوا اكثر عددا فقد فروا امامنا . ولكننا كنا نراهم فى وضوح . على يميننا ويسارنا وامامنا

www.dvd4arab.com

وخلفنا يذبحون البيض ويبادرون بحرق الحصن . وازداد غضبنا ازاء جبنهم .

وعند احد الابواب الخلفية للحصن تقدم ثاديه الى وهو مثخن بالجراح وقال :

— سيدى النقيب ، ان صاحبك بييرو ساحر او « اوبى » كما يقول هؤلاء الزنوج الملاعين ، او هو شيطان على الاقل . كنا نقاوم مستبسلين . وكنت انت قادما . وكنا على قاب قوسين من النصر عندما دخل الحصن من حيث لا ادرى . اما عن عمك واسرته وزوجتك ...

قاطعته متسائلا : مارى ... ابن مارى ؟

وفى هذه اللحظة خرج زنجى اسود عملاق من خلف حظيرة محترقة حاملا معه امراة شابة تصيح وتقاومه . كانت المراة الشابة مارى وكان الاسود بييرو .

صحت : ايها الخائن ...

وصوبت مسدسى نحوه ، ولكن ارتمى احد العبيد الثائرين امامه وخر ميتا ، والتفت بييرو ، وبدا كما لو كان يوجه الى بضع كلمات ثم توغل وسط اعواد قصب السكر حاملا فريسته معه . وبعد لحظة تبعه كلب ضخم يحمل بين اسنانه مهدا يرقد فيه آخر وليد لعمى . وعرفت الكلب على الفور ، كان راسك ، واستبد بى الغضب وافرغت مسدسى فى الكلب ولكننى لم اصبه .

ورحت اعدو كالمجنون مقتفيا اثره ، ولكن ما مر بى من تعب وارهاق اثناء الليل ، والجهد الذى بذلته فى الساعات الاخيرة دون ان انال اى قسط من الراحة ومخاوفى من اجل مارى .. وانتقالى الفجائى من منتهى السعادة الى آخر مرحلة من مراحل الشقاء ، كل هذه الانفعالات انهكتنى اكثر مما انهكنى التعب الجسمانى فلم امش بضع خطوات حتى تهاويت وغشيت عينى سحابة واغمى على .

Looloo
www.dvd4arab.com

عندما استيقظت الفيت نفسي في بيت عمي الذي اصابه الدمار ، وبين ذراعي ثاديه .. وكان ثاديه الوفي يتأملني في قلق شديد .

وصاح بمجرد ان احس بنبضي يتحرك تحت يديه : النصر ! .. النصر ! .. انهزم الزنوج وعاد النقيب الى الحياة .

قاطعت صيحة الفرح التي اطلقها بسؤالي الخالد : اين ماري ؟

لم اكن قد جمعت شتات افكاري بعد ، ولم احتفظ بذكرى مصابي ، وانما باحساسي به . واطرق ثاديه براسه ، وعندئذ عادت الى ذاكرتي كلها ، وعشت في لحظة وجيزة كل ما مر بي في هذه الليلة الرهيبة ، ورايت الزنجي العملاق يحمل ماري بين ذراعيه خلال الحريق كرؤيا شيطانية ، والضوء البشع الذي دوى في المستعمرة واظهر كل البيض اعداء لعبيدهم جعلني ارى في بيرو ، هذا الرجل الطيب والكريم والوفي الذي يدين لي بحياته ثلاث مرات جاحدا ووحشيا وغريبا .. واكد لي اختطافه لزوجتي في نفس يوم زفافنا شبهاتي الاولى ، وعرفت اخيرا ، وفي وضوح تام ان مغنى الاستراحة لم يكن غير مختطف ماري الحقير ... ما اكثر ما حدث من تغييرات في هذه الساعات القلائل .

قال لي ثاديه انه تعقب بيرو وكلبه دون جدوى ، وان الزنوج انسحبوا على الرغم من ان عددهم كان يفوق جنودنا بكثير ، وانه كان في مقدورهم التغلب علينا بكل سهولة ، وان حرق املاك امرتي مستمر دون ان يستطيع احد ايقافه .

وسألته ان كان يعرف ما حدث لعمي ، وكان قد نقلني الى غرفته بالذات فاخذ يدي في صمت وقادني نحو المخدع وازاح الستائر .

كان عمي المسكين ممددا في فراشه ، يغوص في قلبه خنجر حتى مقبضه ، وكان الهدوء البادي على وجهه يدل على انه تلقى الطعنة وهو نائم . وكان فراش القزم « هابيبراه » وكان يرقد عادة عند

Looloo
www.dvd4arab.com

قدميه ، ملوتا هو الآخر ، والدم يصبغ السترة المزخرفة التى يرتديها المجنون المسكين . وكانت ملقـــاة على الارض بجوار الفراش .

ولم اشك فى ان المهرج مات ضحية اخلاصه لعمى ، وان زملاءه ربما قتلوه وهو يدافع عن سيده .

ولمت نفسى لشبهاتى السابقة التى جعلتنى احكم حكما خاطئا على هابيبراه وعلى بيبرو . وامتزجت دموعى التى ذرفتها على نهـــاية عمى العاجلة ببضع حسرات على مجنونه . وامرت بان يبحثوا عن جثته ، ولكن ابحاثنا راحت عبثا ، واعتقدت ان الزنوج اخـذوا القزم والقوا به فى النيران . وفى الجنازة التى اقيمت لعمى امرت ان تتلى الصلاة على روح هابيبراه المخلص .

— ٢٠ —

وقع حصن جاليفيه ودمر ، واختفت املاكنا ، ولم تعد هنـــاك جدوى من اطالة المقام فى هذه الاطلال ، فعدنا الى مدينة الكاب فى نفس المســاء .

ووقعت فريـــسة مرض شديد ، وانتابتنى الحمى ، فان الجهـد الذى بذلته لكى اتغلب على ياسى كان من العنف بحيث توترت الطاقة وانقطعت ورحت اهذى .. آمالى المخدوعة وصديقى الغادر وضياع مستقبلى والغيرة الشديدة .. كل ذلك افقدنى الرشد والصواب . خيل لى ان النيران تسرى فى عروقى وان راسى توشك ان تنفجر . كان قلبى يتمزق غضبا وحنقا .. تصورت مارى فى قبضة عبد اسود اصبح سيدها ، واعنى به بيبرو . وقد قيل لى انى كنت اندفع من فراشى وانه كان لابد لى من ستة رجال للحيلولة بينى وبين ان احطم راسى فى الجدران .

ومرت هذه الازمة بفضل الاطباء وعناية ناديه . ولا ادرى اية

Looloo
www.dvd4arab.com

قوة تدفع الشباب الى التمسك بالحياة .. كل ذلك تغلب على الداء وشفيت بعد عشرة ايام . ولم اشعر باى حزن او اسى لبقائى على قيد الحياة رغبة منى فى الانتقام .

وما ان شفيت حتى اسرعت الى مسيو دى بلانشلاند آنشد عملا . وقد اراد ان يعهد الى بمركز للدفاع عنه ولكننى توسلت اليه أن يبعث بى كمتطوع الى احدى الفرق المتحركة التى يرسلها من وقت لآخر لمحاربة السود .

وكان الجنود قد اسرعوا بتحصين الحصن ، وكانت الثورة تتقدم تقدما فظيعا . وبدا زنوج بورتو برنس يثورون . وكان بياسو يقود زنوج ليجيه والآكول . اما جان فرانسوا فقد نادى بنفسه قائدا عاما لثوار سهول ماريبارو . اما بوكمان ، الذى اشتهر بعد ذلك بنهايته المفجعة فكان يطوف بزملائه من الاشرار بشواطىء ليموناد فى حين اقامت عصابات مورن روج عليها زعيما اسود يدعى بوج جارجال .

وقد تعارضت اخلاق وطباع هذا الاخير مع وحشية الآخرين تعارضا غريبا ، اذا صدقنا ما اشيع عنه . فبينما كان بياسو وبوكمان يتفنان فى اختراع شتى الوان الموت والتعذيب للاسرى الذين يقعون بين ايديهم ، كان بوج جارجال يبادر ويقدم لهم كل الوسائل التى تتيح لهم مغادرة الجزيرة . وكان الاولان يعقدان الصفقات مع البواخر الاسبانية التى تختلف الى السواحل ويبيعان لها مسبقا الاسلاب والغنائم التى يضمانها من المساكين والتعساء الذى يضطرون الى الفرار . اما بوج جارجال فقد اغرق الكثير من هؤلاء القراصنة ، وقد اخلى سبيل مسيو كولادى مينيه وثمانية من المستعمرين المعروفين كان بوكمان قد امر بربطهم الى عجلة القيادة باحدى هذه السفن ، وراح الجميع يروون عن ذلك الزعيم آلاف القصص التى تدل على كرمه والتى لا يسمح المقام بذكرها .

وبدا لى ان رغبتى فى الانتقام ليس من السهل تحقيقها . فانى

Looloo
www.dvd4arab.com

لم اسمع احدا يتكلم عن بيرو . واستمر الثوار الذين يتزعمهم بياسو يثيرون قلق مدينة الكاب ، بل انهم اجتراوا على الاقتراب من التل الذى يشرف على المدينة ولقى مدفع القلعة مشقة كبيرة فى ابعادهم . وعقد المحافظ العزم على ان يردهم داخل الجزيرة ، وانضم جنود المليشيا بجنود مدن الاكيل وليجيه وداناميت وماريبارو الى فرقة الكاب والفرق الصفراء الرهيبة والفرق الحمراء وتكون منهم جميعا جيشنا الفعال . اما جنود المليشيا بمدن دوندون وكارتييه ودشان فقد انضمت اليهم فرقة من المتطوعين بقيادة التاجر بونسنيون وعسكروا فى مدينة الكاب للدفاع عنها .

وقد اراد المحافظ ان يتخلص اولا من بوج جارجال الذى بدت هجماته تثير قلقه فارسل اليه مليشيا الوانا مينيت وفرقة من الكاب . وعاد هؤلاء الجنود بعد يومين مدحورين تماما . واصر المحافظ على رغبته فى قهر بوج جارجال فارسل اليه نفس الفرقة بعد ان دعمها بخمسين من الفرسان الصفر واربعمائة من جنود المليشيا . وعاد هذا الجيش الثانى وهو فى حالة اسوا من سابقه ، وكان تاديه ضمن هذه البعثة الثانية ؛ وقد اصابته خيبة امل كبيرة واقسم لى عند عودته انه سوف ينتقم من هذا البوج جارجال .

واغرورقت عينا دوفرنى بالدموع وعقد ذراعيه فوق صدره وبدا كانه غرق فى حلم كئيب لبضع دقائق ثم عاد واستانف قصته .

— ٢١ —

جاء النبأ بان بوج جارجال غادر الموزن روج واتجه برجاله عبر الجبال لكى ينضم الى جيش بياسو ، وكان المحافظ يرقص طربا وقال وهو يدعك يديه : لقد وقعوا فى ايدينا .

وفى صباح اليوم التالى ، كان الجيش الاستعمارى على بعد

Looloo
www.dvd4arab.com

فرسخ واحد من مدينة السكاب . وهجر الثوار ، وهم يرونا نتقدم ، بورت مارجو وحصن جاليفيه مسرعين . وكانوا قد اقاموا في الحصن مركزا للدفاع عنه قوامه قطع ضخمة من المدفعية غنموها من فرق الساحل ، وارتدت كل العصابات نحو الجبال ، وكان المحافظ منتصرا . واستانفنا تقدمنا وكل منا ، وهو يمر بهذه السهول القاحلة المقفرة ، يحاول ان يحيى بنظرة اخيرة حزينة المكان الذي كانت فيه مزارعه واملاكه . وكان لا يستطيع في اغلب الاحيان معرفة المكان .

وكان تعترضنا من وقت لآخر جمرات تاتي من الحقول المزروعة وتهبط في الغابات والمغارات ، ففي مثل هذا الطقس حيث الارض ما زالت عذراء والنباتات وفيرة تصاحب الحرائق ظواهر غريبة ، ويسمعها المرء من بعيد ، واحيانا قبل ان يراها فهي تصدر صوتا اشبه بهدير الشلالات . وكذلك جذوع الاشجار التي تنهار والاغصان التي تفرقع والجذور التي تطقطق في الارض والاعشاب الكبيرة التي تحترق وهدير البحيرات وصفير اللهب الذي يلتهم كل ما امامه ، يصدر عن كل ذلك صخبا لا يلبث ان يهدا ثم يزداد حدة مع انتشار الحريق ، وترى احيانا حافة من الاشجار الخضراء لم تمتد اليها النار بعد ثم اذا بها شعلة متاججة ، واذا بها تبدو كثعبان احمر يتلوى ويتلوى ثم يرتفع ويهبط ولا تلبث النيران ان تخبو وتنقشع عن سحابة من الدخان ترتفع وتمطر رمادا احمر فوق الارض .

— ٢٢ —

وفي مساء اليوم الثالث بلغنا عنق جراند ريفير (النهر الكبير) وخيل لنا ان الزنوج اصبحوا على بعد عشرين فرسخا منا ، في الجبل .

Looloo
www.dvd4arab.com

واقمنا معسكرنا فوق قمة تل صغير ، وبدا لنا انهم استخدموا المكان لنفس الغرض لانه كان قد تجرد من الاشجار والنباتات . وكان المكان لا يدعو الى الارتياح، ولكن والحق يقال، كنا نشعر بالهدوء. فقد كانت تحيط بالتل من جميع النواحي صخور عمودية حولها غابات كثيفة ، والنهر يجرى خلف المعسكر ويضيق بين صفيه فى هذه الناحية ، وتنمو على الضفتين نباتات متعرشة تكاد تخفى النهر عن الانظار ، بحيث ان العين التى تتامل هذه الصخور من عل يخيل لها انها ترى مزارع ندية ولا يدل على وجود النهر فى هذا المكان غير خرير المياه .

ولم تلبث الشمس ان اختفت وراح الليل يبسط ذيوله على المعسكر ، ولم يعد يبدد الصمت غير صيحات الطيور وخطوات الحراس الرتيبة .

وسمعنا فجاة فوق رءوسنا غناء الزنوج المخيف ، واقطرمت الاشجار التى تحيط بالصخور بالنيران ، ورايتنا على ضوئها عصابات كثيرة العدد من الزنوج والخلاسيين ، عرفنا فيهم زنوج بياسو .

كان الخطر عاجلا ، واستيقظ الزعماء مذعورين واسرعوا يجمعون جنودهم . وفزعت الطبول ونفخ فى البوق ، وتجمعت صفوفنا فى ارتباك ، وبدلا من ان ينتهز الثوار فرصة ارتباكنا وقفوا جامدين ينظرون الينا ويغنون .

واذا بعبد عملاق يقف وحده على قمة اعلى صخرة من الصخور الثانوية التى تحيط بالنهر الكبير ، ترفرف على جبينه ريشة بلون النار ، وفى يده اليمنى بلطة وفى يده اليسرى علم احمر . وعرفنا فى هذا العملاق بيرو . ولو انتى وجدت فى هذه اللحظة بندقيه تحت يدى فلعل الغضب كان يحملنى على ارتكاب عمل يدل على الخسة والجبن . وكرر الاسود اغنيته المخيفة وغرز علمه فى الصخرة ورمى ببلطته فوق رءوسنا حيث هبطت فى النهر . واحسست بالاسف عندئذ لانني ادركت انه لن يموت بيدى .

Looloo
www.dvd4arab.com

وبدا السود عندئذ يلقون علينا سيلا من الصخور . وراح الرصاص والسهام يتساقط حولنا فى النهر ، واحتدم جنودنا غيظا لعدم تمكنهم من النيل من مهاجميهم ، وماتوا وهم فريسة اليأس ، بعضهم طحنتهم الصخور والبعض نال منهم الرصاص والسهام . وسادت الفوضى بين صفوف الجيش . وفجأة ارتفعت ضجة هائلة من وسط النهر . كان يدور فيه منظر غريب ، فان الفرسان الصفر ، وقد لحقتهم اسوا معاملة من جموع الثوار ، خطر لهم ان يفلتوا منهم باللجوء الى النباتات المتعرشة النامية على ضفة النهر . وكان ثاديه هو اول من خطرت له هذه الفكرة . وهى فكرة رائعة .

وهنا امسك الراوى عن الكلام .

— ٢٣ —

كان ثاديه قد تسلل الى الخيمة منذ ربع ساعة وذراعه معلق الى صدره دون ان يراه أحد ووقف فى ركن منها . ودلت حركاته فقط على مدى اهتمامه بقصة النقيب ، وفى هذه اللحظةبالذات خيل له ان الاحترام لا يسمح له بأن يترك مثل هذا الثناء المباشر يمر دون أن يشعر دوفرنى فتمتم يقول فى ارتباك :

— انت رجل كريم جدا يا سيدى .

ارتفعت قهقهة عامة وتحول دوفرنى اليه وصاح يقول فى لهجة قاسية : كيف هذا ؟ .. انت هنا ياثاديه ؟ .. وذراعك ؟

وكانت هذه اللهجة جديدة بالنسبة للجندى الشيخ فتجهمت اساريره وتمايل فى وقفته ، وطوح براسه الى الخلف لكى يوقف الدموع التى ترقرقت فى عينيه وقال فى صوت خافت :

— لم اكن اتوقع ان تخاطبنى بهذا الجفاء كما لو انني رجل غريب يا سيدى .

Looloo
www.dvd4arab.com

هب النقيب واقفا على الفور وقال : عفوا يا صديقى العزيز ، عفوا . لا ادرى ماذا قلت ، فهل تصفح عنى ؟

اغرورقت عينا الرقيب بالدموع رغما عنه وقال : هذه ثالث مرة ابكى فيها ، ولكننى ابكى الآن فرحا .

وانبسطت اسارير الجميع ، وساد صمت قصير قطعه النقيب بان ساله اخيرا :

— ولكن قل لى لماذا غادرت غرفة الاسعافات وأتيت الى هنا ؟

— ذلك لأننى اردت ان اسالك اذا كنت تحب ان اضع السرج الموشى من اجل معركة الغد .

ضحك هنرى وقال : كان الاجدر بك ياثاديه ان تسال الطبيب الجراح اذا كان يجب ان تلف يدك فى بعض النسالة (خيوط كانت تستعمل قديما فى تضميد الجروح) .

وقال باسكال : او ان تساله اذا كان فى مقدورك ان تحتسى قليلا من النبيذ لانعاش قواك .. ومهما يكن فاليك بكاس من الخمر لا يمكن الا ان تصيبك بالخير .

تقدم ثاديه ، وحيا تحية الاحترام واعتذر للقوم لاضطراره لاخذ الكاس بيده اليسرى وافرغها فى جوفه فى صحة الجميع . واضطرم وجهه وقال :

— بلغت من فصتك يا سيدى النقيب تلك اللحظة حيث كنت .. نعم : انا الذى اقترحت عليهم اللجوء الى تلك النباتات المتعرشة لكى تنجو من الموت تحت الاحجار . ولكن قائدنا كان لا يعرف العوم فخشى ان نغرق ، وهذا امر طبيعى فاخذ يعارضنى بكل قواه الى ان راى حجرا ضخما اوشك ان يحطمه يقع فى النهر ولا يغوص فيه بسبب الاعشاب فقال عندئذ : اولى بنا ان نموت كما مات فرعون مصر . ولكنه طلب منى ان اكون اول المتقدمين فمضيت وهبطت الى الضفة ووثبت الى النهر وانا اتشبث باعلى الاغصان . ولكننى لم البث ان احسست بان هناك من يشدنى من ساقى فقاومت . ولحق

Looloo
www.dvd4arab.com

بى جميع الفرسان وهم يصيحون كالشياطين . كان زنوج مورن ردج مختبئين بين الاعشاب متربصين لكى يفاجئونا فى اللحظة المناسبة واختلط الحابل بالنابل ودار عراك مستميت . وكانوا عراة الاجسام واخف منا حركة ، ولكن ضرباتنا كانت اشد من ضرباتهم ، واخذنا نسبح بذراع ونقاتل بالاخرى ، كما يحدث عادة فى مثل هذه الظروف . اما الذين يجهلون السباحة فكانوا يتعلقون بالاعشاب وكان الزنوج يجذبونهم من ارجلهم . وبينما المعركة فى اشدها رايت عبدا ضخما يقاتل كالشيطان ويقاوم ثمانية او عشرة من زملائى . واسرعت اليهم ، وعرفت فى العبد بيبرو . وكنا قد اختلفنا منذ ان سقط الحصن اطبقت بيدى على عنقه وهم بان يتخلص منى بطعنة من خنجره عندما رآنى فاستسلم لى بدلا من ان يقتلنى ، وهذا لسوء الحظ لانه لو لم يستسلم لى .. ولكننا سنعرف هذا فيما بعد .. ولما راى الزنوج اننى اسرته هجموا على ليخلصوا منى . وهجم جنود المليشيا فى نفس الوقت . واذ راى بيبرو ان زنوجه هالكين لا محالة نطق ببضع كلمات لم افهمها وكان لها وقع السحر لان الزنوج بادروا بالفرار واختفوا فى لمح البصر . وكان من الممكن ان تكون هذه المعركة النهرية رائعة لو لم افقد فيها اصبعا ، ولكن كان هذا مكتوبا فى لوح القدر يا سيدى النقيب .

وقال دوفرنى : هذا صحيح يا عزيزى ثاديه . كانت هذه الليلة مشحونة حقا .

واوشك ان تستغرقه احدى هذه الاحلام العميقة التى اعتاد عليها لو لم يحثه القوم على اتمام قصته . واستطرد يقول عندئذ :

ـ ٢٤ ـ

بينما كانت المعركة التى ذكرها ثاديه تدور فوق التل كنت قد استطعت ، مع بعض رجالى ، تسلق صخرة كبيرة مسطحة تشرف على

Looloo
www.dvd4arab.com

المواقع التى يحتلها المتمردون ؛ وما أن مهدنا الطريق حتى تبعنا جنود الميشميا . ورحنا نطلق النيران ، وكانت اسلحتنا تفوق اسلحة الزنوج بكثير فلم يستطيعوا الرد عليها بعنف ، وسرعان ما وهنت عزيمتهم ، واستبسلنا فى القتال ، ولم تلبث الصخور أن اخليت من أعدائنا الذين حرصوا قبل ذلك على القاء جثث قتلاهم على بقية الجيش الذى لا يزال يقاتل فوق التل ، فاسرعنـــا الى الاشجار الضخمة وقطعنا بعضا منها وربطناها بعضها ببعض وصنعنا منهـا زورقا يكفى لمائة منا . وبواسطة هذا الزورق المرتجل مررنا بالصخور المهجورة ، وبهذا وجد جزء من الجيش نفسه فى موقف احسن . وزعزع هذا المنظر من قوة المتمردين ، وضاعفنا من اطلاق النار ، وعلا صياح الثوار ، وكان يدل على اليأس ، وتخلله اسم بوج جارجال ، وساد الذعر بين صفوفهم ، ورأينا كثيرين منهم يقفون مذهولين فوق الصخرة التى يرفرف عليها العلم الاحمر ويرفعون العلم ويسرعون الى ناحية النهر ؛ ودلنا ذلك على ان زعيمهم اما أن يكون قد مات او اخذ اسيرا .

وتزايدت جرأتنا ، وعزمت على أن اطرد بالسلاح الابيض الثوار من الصخور التى ما زالوا يحتلونها ، والقيت جسرا من احد جذوع الاشجار بين صخرتنا والصخرة المجاورة واندفعت وسط الزنوج ، وهم جنودى أن يلحقوا بى ، ولكن احد جنود الثوار هوى ببلطته على جذع الشجرة فشطره نصفين وسقط فى النهـر فى دوى شديد .

والتفت خلفى ، وفى هذه اللحظة احســت بستة او سبعة من الزنوج يجردوننى من سلاحى . وقاومتهم كالاسد ، ولكنهم اوثقونى بالحبال غير عابئين بالرصاص الذى يتساقط عليهم من رجالى .

ولم اشعر بالعزاء الا وانا اسمع صيحات النصر تدوى حولى بعد لحظات . ولم البث ان رايت الســـود والخلاسيين يشلقون الصخور المنحدرة مرتبكين وهم يصيحون يائسين ، وتبعهم اولئك

Looloo
www.dvd4arab.com

الذين اسروني ، وقد حملني اقواهم فوق كتفيه ومضى بي نحو الغابات وهو يثب من صخرة الى اخرى في خفة الوعل .

ولم يلبث ضوء النيران ان اختفى ، ولكن صاحبي اكتفى بنور القمر وراح يمشي وقد خفف من سرعته .

— ٢٥ —

بعد ان اجتزنا غابة من الشجيرات الصغيرة وعبرنا جداول كثيرة وصلنا الى واد وحشي لم اعرفه من قبل ، يقع في قلب الاكول يعرفونه في سانتو دومينجو باسم « الجبال المزدوجة » وهو سهل خصب اخضر محصور بين جدران من الصخور العارية تنبت فيه اشجار الصنوبر والنخيل ، برده قارس يزداد رطوبة في الليل . وكان الفجر قد بدأ يبزغ فأضاء بنوره القمم العالية المحيطة ، اما الوادي نفسه فكان لا يزال غارقا في ظلام دامس ، لا يبدد ظلمته غير النيران العديدة التي يشعلها الزنوج . وكان ذلك السهل نقطة لتجمعهم غير المنظم ، وكان السود والخلاسيون يأتون من وقت لآخر في فرق مفزوعة مذعورة وهم يطلقون صيحات الياس والغضب . وكانت النيران التي تومض كعيون النمر في السهل المظلم تدل على ان المعسكر يزداد اتساعا في كل لحظة .

والقاني الاسود الذي اسرني عند جذع شجرة من البلوط ، وكنت ارى من مكاني هذا المنظر دون اية مبالاة . وربطني من وسطي بالشجرة واحكم وثاقي بحيث لم استطع حراكا ووضع فوق راسي طاقيته الحمراء ، ولا ريب انه اراد ان يشير بها الى انني ملكه . وبعد ان تاكد انني لن استطيع الهرب ، وان احدا غيره لن يستطيع ان ياخذني ، وهم بان يبتعد استقرت نيتي على ان اخاطبه عندئذ فسالته باللهجة الاقليمية هل هو من جماعة دوندون او جماعة الورن روج فتوقف واجابني في كبرياء « مورن روج » . وخطرت

Looloo
www.dvd4arab.com

يبالى فكرة ؛ فقد سمعت عن كرم زعيم هذه الجماعة ، بوج جارجال، وعلى الرغم من اننى كنت قد وطدت العزم على ان فى الموت نهاية لمصائبى فان فكرة التعذيب على يدى بياسو كانت تومى الى برعب شديد . لم اكن ابغى شيئا غير الموت ولكن من غير تعذيب او تنكيل ، ولعل ذلك ضعفا ، غير اننى اظن ان طبيعة الرجل تتمرد دائما فى مثل هذه الحالات . ورايت اذن اننى اذا استطعت ان انجو من بياسو فقد احصل من بوج جارجال على ميتة بعيدة عن التعذيب .. ميتة جندى . وطلبت من ذلك العبد ان يمضى الى حيث بوج جارجال فاجفل وصاح بى وهو يضرب جبينه بيده « بوج جارجال » ، ثم صاح فى غضب وهو يلوح لى بقبضته « بياسو .. بياسو » وبعد ان نطق بهذا الاسم المخيف تركتنى ومضى .

اثار غضب الزنجى والمه ذكرى تلك اللحظـــة من المعركة التى استنتجنا منها وقوع بوج جارجال فى الاسر او موته ، ولم اعـد اشك فى ذلك واستسلمت لمصيرى ولانتقام بياسو ولشروره وتعذيبه .

— ٢٦ —

هذا والوادى لا يزال سادرا فى الظلام وجموع السود ما زالت تتوافد والنيران تزداد اتقادا وتاججا . وجاءت جماعة من الزنجيات واشعلن نارا على مقربة منى . تلمع فى سواعدهن وسيقانهن اساور من الزجاج الاحمر والازرق والبنفسجى وفى آذانهن اقراط وفى كل اصبع من اصابع ايديهن وارجلهن خواتم ويعلقن فى اعناقهن احجبة وعقودا تتدلى على صدورهن وفوق خصورهن مراول مزينة بالريش عرفت من نظراتهن الغامضة الزائغـــة ، وصياحهن المتزن انهم من الساحرات . ولعـــلكم تذكرون انه يوجد بين سودان افريقيا فتوح موهوبون بموهبة الشعر والارتجال الى حد شبيه بالجنون . وهؤلاء

Looloo
www.dvd4arab.com

الزنوج يتنقلون من بلد الى آخر وهم اشبه بهؤلاء الرواة الذين كانوا ينشدون الملاحم والاساطير فى العصور القديمة او الشعراء الغنائيين الذين اشتهرت بهم فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وهذا النوع من الزنوج يعرف باسم السحرة ، وزوجاتهم الساحرات قد مسهن الشيطان هن الاخريات ويصاحبن ازواجهن فى رقصهم وغنائهم . كان بعض من هؤلاء النسوة اذن هن اللاتى التففن على بعد خطوات منى وقد لففن سيوفهن على الطريقة الافريقية حول نار كبيرة اشعلنها من اوراق الشجر الجافة وراحت تعكس على وجوههن ضوءها الاحمر .

وما ان اكتملت دائرتهن حتى اخذت كل منهن بيد الاخرى ، وراحت اكبرهن سنا ، وكانت قد شبكت فى شعرها ريشة من جناح الطائر المعروف بمالك الحزين ، وصاحت تقول « اووانجا » وعرفت انهن سيمارسن نوعا من السحر معروفا بهذا الاسم ورددت الاخريات صيحتها « اووانجا » وبعد صمت قصير انتزعت زعيمتهن حفنة من شعرها والقت بها فى النار وهى تقول « سأذهب الى الشيطان » .

واقتدت الساحرات بزعيمتهن والقين فى النار بحفنة من شعورهن وهن يكررن قولها . واثارنى هذا الابتهال القريب وما صاحبه من تكشيرات مضحكة ، ولم اشعر الا وانا اضحك رغما عنى .

واضطربت الزنجيات ونهضن وهن مذعورات ، ولم يكن قد لاحظن وجودى حتى هذه اللحظة ، واسرعن نحوى صاخبات وهن يصحن :

ـ الأبيض .. الابيض .

ولم يسبق لى ان رايت قبل ذلك اليوم وجوها مخيفة كما رايت تلك الوجوه الغاضبة السوداء باسنانها البيضاء وعيونها البيضاء بعروقها الكبيرة الدامية .

وتطايرت عيونهن شررا ، ورايت انهن ينشدن تمزيقى ولكن زعيمتهن صاحت بهن : النظام .. النظام .. فتوقفن فجأة ورايتهن

Looloo
www.dvd4arab.com

يخلصن مراوغهن ويلفينها ارضا ويبدان حولى رقصة كان المفروض ان تثير ذعرى ويرشقننى بنظرات شذراء وهن ينشدن اغنيات يشوبها رنة من الشؤم تناقض مايبدو عليهن من غبطة وفرح . وكانت زعيمتهن العجوز تثير حماسهن بعزفها على ناى غليظ اشبه بمزمار الراعى يصدر منه تأوهات حادة طويلة ، وكانت كل منهن عندما كانت رقصتها تدنيها منى تضحك فى وجهى ضحكة رهيبة مخيفة فتسرى القشعريرة فى بدنى كله .

تذكرت عندئذ عادة الشعوب الهمجية التى ترقص حول الاسرى قبل ذبحهم ، ولم يسعنى الا ان ادع هؤلاء النسوة يفرغن من رقصة الموت التى لم يكن لدى ادنى شك فى نتيجتها الحتمية . ومع ذلك لم أتمالك نفسى من ان ارتعد عندما رايت كلا منهن فجأة تضع فى النار نصل سيف او بلطة او طرف مسلة طويلة او منشارا .

واوشكت الرقصة ان تنتهى ، واصبحت ادوات التعذيب حمراء كالجمر . واشارت العجوز الى الزنجيات وراحت كل منهن تتناول الاداة التى وضعتها فى النار ، وعندئذ ادركت فى وضوح ما ينتظرنى من عذاب وايقنت ان كل زنجية منهن ستكون جلادا لى . واصدرت العجوز اشارة اخرى فبدان رقصة جديدة دائرية وهن يصحن صيحات مخيفة . واطبقت عينى حتى لا أرى وجوههن البشعة الشيطانية وادوات التعذيب التى يتطاير منها الشرر وانتظرت منوترا اللحظة التى احس فيها بجسدى وهو يتمزق وسرت القشعريرة فى كيانى . وكانت لحظة رهيبة حقا .

ولكنها لم تطل لحسن الحظ ، فما ان همت النسوة بالانقضاض على حتى سمعت من بعيد صوت الزنجى الذى اسرنى . كان يركض نحونا وهو يصيح :

— ماذا تفعلن بأسيرى ايتها اللعينات ؟ .. ماذا تفعلن ؟ .. اتركن اسيرى .

Looloo
www.dvd4arab.com

فتحت عينى . كان النهـــار قد طلع . واسرع الزنجى نحونا وهو ياتى باشارات غاضبة . وكانت الساحرات قد توقفن . ولكن لم يبد عليهن اى تاثر من تهديداته وانما بدا عليهن الذهول وهن يرين الرجل الذى يصاحب الاسود .

كان رجلا ضخم الجسم قصير القامة . كان قزما يخفى وجهه خلف قنـــاع ابيض به ثلاثة ثقوب فى مواضع الفم والعينين على طريقة النساك الزاهدين . وكان هذا القنـــاع يغطى وجهـــه وعنقه وكتفيه وصدره المكشوف الذى بدا كأن اظافرا قد خدشته وتتدلى فوقه ايقونة فضية معلقة فى سلسلة ذهبية . ورايت مقبضا على هيئة صليب لخنجر معلق بحزام فى وسطه يربط جونلة مخططة بخطوط خضراء وصفراء وســـــوداء تنتهى بشرابات حتى قدميه الكبيرتين المشوهتين . وكان عارى اليدين كصـــدره ، وفى يمناه مراوة بيضاء وتتدلى من حزامه مسبحة بجوار الخنجر ، ويضع على راسه قبعة ذات اجراس لم ادهش عندما عرفت فيها قبعة هابيبراد ؛ ولحظت ان القبعة ملوثة ببقع من الدم ولم يتطرق الى الشك فى انه دم المهرج المخلص . وبدت لى هذه القبعة دليلا جـديدا على موته ، واثارت فى نفسى حسرة جديدة .

وعندما رات الزنجيات هذا الرجل سجدن وهن يصحن فى صوت واحد « الاوبى » اى الساحر الافريقى .

وادركت ان هذا الرجل هو الساحر فى جيش بياسو .

قال لهن فى صوت اجش آمر : كفى .. كفى .. اتركن اسير بياسو .

نهضن صاخبات والقين باسلحة الموت واخذن مراولهن ، وابدى الساحر اشارة تفرقن بعدها كما لو كن جيشا من الجراد .

وتفرس الساحر فى وجهى عندئذ ولم يلبث ان اجفل وارتد خطوة الى الوراء ورفع هراوته نحو الزنجيات كما لو كان يريد ان يدعوهن وسمعته يغمغم بين شفتيه بكلمة « الملعون » ثم همس ببضع كلمات

Looloo
www.dvd4arab.com

فى اذن الاسود ومضى بعد ذلك عاقدا ذراعيه مطرقا برأسه كما لو كان قد استغرقته الافكار .

— ٢٧ —

اخبرنى حارسى عندئذ ان بياسو يريد ان يرانى وان امامى ساعة لكى استعد لهذه المقابلة التى ستكون فظيعة دون شك .

ولكن كان معنى ذلك اننى سابقى على قيد الحياة ساعة اخرى . وفى انتظار ذلك راحت عيناى تدوران فى معسكر المتمردين . وكان نور النهار يبين ادق نقاطه . ولو اننى كنت فى حالة ذهنية اخرى فاننى ما كنت لأستطيع ان امنع نفسى من ضحك متواصل بسبب غرور السود فقد كانوا يبدون جميعا فى ازياء عسكرية وكهنوتية سلبوها من ضحاياهم ، وكانت اكثر الازياء عبارة عن خرق ممزقة مصبوغة بالدماء .. قطعة من الدانتللا تزين سيفا ، وشرائط مختلفه الالوان يلفونها حول اكتافهم ، وكانوا يجلسون فى جمود وبلا حراك . ولا ريب انهم كانوا يستريحون بذلك من الاعمال التى كانوا مجبرين على انجازها طوال حياتهم . كان بعضهم ينام فى العـــراء تحت الشمس ، ورءوسهم بجوار نار محتدمة ، وآخرون عيونهم اما باهتة واما غاضبة ، يغنون اغنية رتيبة وقد جلسوا القرفصاء على عتبات اكواخهن المقامة من اوراق الموز باشكال مخروطية تشبه خيامنـا . ونساؤهم السوداوات او الملوحات تعد طعام المقـــاتلين بمساعدة اولادهن . كنت اراهم يحركون الانيام (جنس من النبات النشوى يؤكل) والموز والبطاطس والبسلة وجوز الهنـد والذرة والكرنب وانواع اخرى كثيرة من الفاكهة البلدية تطهى مع لحـــوم الخنزير والسلحفاة والـكلاب فى مراجل كبيرة سرقوها من بيوت المزارعين . وعلى بعد ، فى حـدود المعسكر جلس السحرة والســاحرات فى حلقات كبيرة حول النيران . وكانت الريح تاتينى بمقاطع من اغانيهم

Looloo
www.dvd4arab.com

البربرية . وبعض الحراس جلوس فوق قمم الصخور المجاورة يتيردن ارباض القيادة العامة لبياسو . وكان الحصن الوحيد ، فى حالة الهجوم ، عبارة عن شريط دائرى من الأوتاد والعربات المحملة بالاسلاب والذخيرة . . هؤلاء الحراس السود كانوا يقفون على قمم الصخور العالية التى تكسوها الاعشاب والاشواك ويرددون بصفة مستمرة ، وبكل قواهم تلك الكلمة التى تصون سلام المعسكر : لا شيء . . لا شيء . .

وكانت بعض جماعات من الزنوج الفضوليين تتجمع حولى من وقت لآخر وينظرون الى نظرات كلها وعيد وتهديد .

— ٢٨ —

واخيرا ، جاءت فصيلة من الجنود الملونين المدججين بالسلاح . وفك الزنجى الذى يبدو اننى ملكه القيد الذى يربطنى الى الشجرة ، وسلمت لرئيس الفصيلة ، واعطاه هذا الاخير كيسا ضخما مقابل ذلك اسرع بفتحه . كان فيه بعض النقود . واصطحبت الجنود معهم فى حين جلس الزنجى يعد نقوده فى طمع . وتاملت ثيابهم فى فضول كانوا يرتدون زيا من الجوخ الاحمر والاصفر على الطريقة الاسبانية ويضعون فوق رءوسهم قبعة ثلاثية الالوان على الطراز الاسبانى هى الاخرى تزينها شارة حمراء ، وكانوا يحملون فوق ظهورهم بدلا من الجربندية كيسا عاديا . اما اسلحتهم فكانت عبارة عن بندقية ثقيلة او سيف او خنجر . وقد علمت بعد ذلك ان هذا الزى هو زى الحرس الخاص ببياسو .

قادنى حراسى حتى مدخل مغارة تحتلها الطبيعة اسفل شق من هذه الشقوق ، وكانت هناك ستارة كبيرة من ذلك القماش الاسيوى المعروف باسم الكاشمير المشهور بملمسه الناعم الرقيق ورسوماته المختلفة والوانه الرائعة ، تخفى عن الابصار ما بداخل هذه المغارة .

Looloo
www.dvd4arab.com

وكان يحيط بها طوابير عديدة من الجنود المدججين بالسلاح اشبه بهؤلاء الذين جاءوا بى .

وكان هناك قنديل ذو خمس شعب معلق بالسلاسل فى القبة ، يلقى ضوءا متلبذبا فى جوانب المغارة الرطبة التى لا تدخلها الشمس ، وبين صفين من الجنود الخلاسيين رايت رجلا ملونا يجلس فوق جذع ضخم لشجرة من اشجار الاكاجو يكسوه تقريبا بساط ريش البيغاء . كان هذا الرجل ينتمى الى جنس السكاترا الذى لا يميزه عن جنس الزنوج غير لمسة خفيفة من اللون تكاد لا تلحظ ، وكان زيه مضحكا ، فقد كان يضع حول وسطه حزاما من الحرير المجدول يربط به سروالا ازرق من القماش الخشن وسترة من الحرير الابيض ، قصيرة جدا بحيث لا تصل الى الحزام ، وفى قدميه حذاء اسمر وعلى راسه قبعة مستديرة فى اعلاها ريشة حمراء وكتفيتين احداهما من الذهب فى وسطها نجمتان من الفضة ، وهى شارة المرافق والاخرى من الصوف الاصفر مثبت بها نجمتان من القماش تبدوان كانهما شوكتا مهمازين لا ريب انهما وضعتا فى مكانهما هذا لكى تجعلا الكتفية الثانية جديرة بصاحبتها . ولم تكن هاتان الكتفيتان فى موضعهما الطبيعى وانما كانتا تتدليان على كل ناحيه من صدره ، والى جواره ، على بساط الريش سيف مرصع وغدارتان مرصعتان هما الاخريان .

وخلف مقعده يقف غلامان ساكتان جامدان يلبسان زى العبيد ويحمل كل منهما مروحة كبيرة من ريش الطاووس . وكان هذان الغلامان من البيض .

وقطعتان مربعتان من المخمل الاحمر يبدو انهما علامة لمقعدين لاثنين من رجال الزعيم ، واحدة على اليمين والاخرى على اليسار . واحد هذين المقعدين يجلس عليه الساحر الذى انقذنى من الساحرات . وكان يجلس وقد ثنى ساقيه ، وهراوته فى يده . وكان ساكنا كما لو كان صنما فى معبد ، وكنت ارى عينيه المتقدتين من خلال ثقبى قناعه وهما تتفرسان فى .

Looloo
www.dvd4arab.com

وفى كل ناحية حول الزعيم اعلام معلقة بينها العلم الابيض المزخرف بزهور الزنبق والعلم الثلاثى الالوان والعلم الاسبانى . اما الاعلام الاخرى فكانت عبارة عن شعارات مختلفة رايت بينها علما كبيرا اسود .

وفى آخر المغارة ، فوق راس الزعيم لفت نظرى شىء ... وهو صورة الخلاسى اوجيه الذى صدر الحكم باعدامه فى مدينة الكاب فى العام الماضى لاتهامه بالتمرد هو ومساعده جان باتيست وعشرين زنجيا . واوجيه هذا ابن قصاب كان يبدو فى الصورة بالزى الذى اعتاد ان يلبسه وهو زى ضابط كولونيل على صدره صليب سان لويس وصليب الاستحقاق ، وهو زى اشتراه فى اوروبا من امير ليمبورج .

اما الزعيم نفسه ، الذى وقفت امامه فكان متوسط القامة فى وجهه الخسيس مزيج من الرقة والقسوة . وادنانى منه وتأملنى بعض الوقت فى صمت واخيرا ابتسم ابتسامة خبيثة وقال : انا بياسو .

وكنت اتوقع هذا الاسم ، ولكننى لم استطع ان اسمعه من هاتين الشفتين وعليهما هذه الابتسامة الخبيثة دون ان ارتعد . غير ان وجهى بقى على هدوئه وكبريائه . ولم انطق .

قال بفرنسية ركيكة : حسنا . هل اصابك الشلل فلا تستطيع ان تحنى عمودك الفقرى وانت فى حضرة جان بياسو ، القائد العام للجيوش المحتلة والفريق فى جيش جلالة الملك ؟

وكان الزعماء الثائرون يزعمون تارة انهم نواب ملك فرنسا وتارة اخرى انهم نواب قادة الثورة او نواب ملك اسبانيا .

وعقدت ذراعى على صدرى وحدقت فى وجهه فكشر عن انيابه وقال : اوه ، اوه ... يبدو لى انك رجل شجاع . حسنا . اصغ اذن الى ما سوف اقول لك . هل انت من المولدين البيض ؟

اجبته : كلا . انا فرنسى .

Looloo
www.dvd4arab.com

– حسنا . اری انك ترتدی زی الضباط ، فكم عمرك ؟

– عشرون سنة .

– متى بلغتها ؟

اثار هذا السؤال ذكريات حزينة فى نفسى وبقيت لحظة غارقا فى افكارى فكرره فى حدة فاجبته :

– فى نفس اليوم الذى شنق فيه زميلك ليجورى .

تقلصت عضلات وجهه لفرط الغضب وكشر عن انيابه للمرة الثانية ، ولكنه تمالك نفسه مع ذلك وقال :

– لقد مضت ثلاثة وعشرون يوما على شنق ليجورى . ايها الفرنسى ، سوف تقول له الليلة انك عشت بعده اربعة وعشرين يوما ، فانى اريد ان ابقى عليك هذا اليوم لكى تستطيع ان تروى له كيف حصل اخوانه على حريتهم وما تراه فى معسكر جان بياسو القائد العام ومدى سلطة هذا القائد على رجال الملك .

كان جان بياسو وزميله جان فرانسوا يطلقان هذا اللقب على جموعهما من المتمردين السود والخلاسيين .

وامر عندئذ ان يعدوا لى مكانا بين حارسين فى ركن المغارة ، ثم اشار بيده الى بعض الزنوج الذين يرتدون زی المساعدين وقال :

– فليجتمع الجيش امام المركز العام للاستعراض .

واردف يقول وهو يتحول الى الساحر : وانت ايها الكاهن . ارتد ثيابك الكهنوتية واحتفل معنا ومع جنودنا بالقداس المقدس .

نهض الساحر وانحنى امام بياسو باحترام كبير وهمس فى اذنيه ببضع كلمات فقاطعه الزعيم فجاة قائلا بصوت مرتفع :

– تقول انه ليس لدينا هيكلا للصلاة ؟ وهل هذا بالامر الغريب فى الجبال ؟ ولكن ما عليك فليس الله بحاجة الى هيكل لكى نعبده ، وليس بحاجة الى مذبح مزين بالذهب والدانتللا . ان يوشع والخضر عيداه فى الخلاء وفوق الاحجار ، فلنقتد بهما ايها الاب الطيب . ان الله يكفيه ان تكون القلوب سليمة ورعة . تقول انك

Looloo
www.dvd4arab.com

بحاجة الى هيكل ؟ الا يمكن ان تتخذ هيكلا من صندوق السكر الكبير الذى غنمه رجال الملك امس من املاك دوبويسون ؟

ونفذت اوامر بياسو على الفور ، ففى اقل من طرفة عين اعدت المغارة لكى تكون هيكلا للصلاة ، فقطوا الصندوق بملاءة بيضاء عليها هذه العبـــارة « دوبويسون وشركاه بنانت » ووضعوا فوقه الآنية المقدسة التى سرقوها من كنيسة الاكول ، وهى نفس الكنيسة التى اقيم فيها الاحتفال بزفافى . ورأى الساحر عندئذ انه بحاجة الى صليب فاخرج خنجره ، وكان مقبضه على هيئة صليب كما سبق القول ونصبه بين الآنية ووضع ثوب الـــكاهن المسروق من نفس الكنيسة على ظهره دون ان يكشف القناع عن رجهه وفتح كتاب الصلاة ثم تحول الى بياسو ، وكان يجلس على بعـــد خطوات من الهيكل . وقال له انه على استعداد .

واتى الزعيم باشارة من يده على الفور فرفعت الستارة الكاشمير كاشفة عن الجيش الاسود كله ، وكان يقف فى اربعة صفوف طويلة امام باب المغارة . ورفع بياسو قبعته المستديرة وجثا بجوار الهيكل وصاح فى صوت قوى : اسجدوا .

وصاح الزعماء بجنودهم : اسجدوا .

ودوت الطبول على الفور ، وركعت الجنود كلهـــا ، وبقيت انا وحدى ، جالسا فوق مقعدى ، ساكنا ، ناقما على ذلك التجديف الفظيع الذى يرتكبونه امامى . ولكن الخلاسيين اللذين يحرسانني جرا مقعدى الى جوار المقعد ودفعانى من فوقه فسجدت رغما عنى .

وتلا الساحر صلاته ، وقام الغلامان الابيضـــان بمهمة الشماس ومساعده . وكانت جموع المتمردين ما زالت راكعـــة تستمع الى الصلاة فى احترام . وعندما فرغ الساحر من صلاته رفع القربان بين يديه وتحول الى الجنود وصاح :

ـ انكم تؤمنون بالله الطيب .. وانه هو الذى اريكم اياه .. ان البيض قتلوه فاقتلوه البيض .

Looloo
www.dvd4arab.com

نطق بهذه الكلمات بصوت قوى خيل لى اننى سمعته فى مكان ما وفى مناسبات اخرى . واطلقت الجموع صيحة مدوية وتلاحمت سيوفهم ولولا وجود بياسو لكانت نهايتى فى تلك اللحظة .

وادركت مدى الشجاعة والفظاعة التى يمكن ان تقود الرجال الذين لا يؤمنون الا بالخنجر والذين يسهل التاثير عليهم .

— ٢٩ —

وعندما انتهت الصلاة تحول الساحر الى بياسو وانحنى امامه فى احترام . ونهض الزعيم عندئذ وخاطبنى بالفرنسية قائلا :

— انهم يتهموننا بانه لا دين لنا ، وهانت ترى ان قولهم هذا انما هو فرية واننا مسيحيون طيبون .

ولا ادرى هل كان جادا فى كلامه او كان يهزل . وبعد لحظة امر ان يأتوه باناء زجاجى مملوء بحبوب الذرة السوداء والقى فيه بيضع حبوب بيضاء ثم رفع الاناء فوق راسه لكى يراه كل الجنود وقال :

— ايها الاخوان . انتم الذرة السوداء اما البيض فهم الذرة البيضاء .

وبعد ان انتهى من هذه الكلمات راح يحرك الاناء ، وعندما اختفت الحبوب البيضاء تحت الحبوب السوداء تقريبا صاح كمن يتكلم عن وحى والهام :

— ترون الآن مدى قوة البيض امامكم .

صيحة جديدة رددها الصدى فى كل انحاء الجبل . واستطرد بياسو يقول :

— لقد مضى وقت الرقة والمجاملات ، وقد صبرنا كثيرا كالخراف ، وكان البيض يشبهون صوفها بشعورنا . ولكن الآن قساة القلوب ، غلاظها كالثمور والفهود التى تعيش فى البلاد التى انتزعونا منها . ان القوة وحدها هى التى تستطيع ان ترد لنا حقوقنا ، وكل شىء يمكن ان يكون ملكا لمن هو قوى لا يعرف الرحمة .

Looloo
www.dvd4arab.com

واسترسل يقول : لقـــد جاءوا ... لقد جاءوا اعداء التقـــدم والانسانية .. هؤلاء البيض ، هؤلاء المستعمرون ، هؤلاء المزارعون ... هؤلاء التجار . لقد جاءوا بوقاحتهم وبثيابهم الزاهية واسلحتهم واحتقرونا لاننا سود وعراة. خيل لهم كبرياؤهم انهم يستطيعون تفريق شملنا بسهولة كما يفرق ريش الطاووس اسراب الذباب . ولـكن جيشنا انقض عليهم انقضاض النمل على احدى الجثث . وسقطوا بثيابهم الجميلة تحت ضربات سواعدنا العـارية التى كانوا يحسبون انها تفتقر الى القوة ، وهم لا يعلمون ان الخشب الجيد يكون اقوى عندما تنتزع منه قشوره . ان هؤلاء الطغاة الملاعين يرتعدون فرقا الآن .

ردت على قوله هذا صيحة فرح وانتصار وراح الجميع يكررون عبارته الاخيرة : انهم يرتعدون فرقا .

واردف بياسو يقول : ايها الخلاسيون ، وانتم ايها الكونجوليون، فكروا الآن فى الانتقام وفى الحرية . وانتم ايها المولدون لا تأخذنكم بهم الرحمة ، واعلموا انهم لم يعاملوكم ابدا معاملة الاب لاولاده وانمـا معاملة السيد لعبيده . كنتم عبيدا لهم كالسود تماما . وبينما كانوا يضنون عليكم بالثياب الا ما يكاد يستر عوراتكم كانوا هم يرفلون فى احسن زينة. العنوا هؤلاء الآباء القساة ، ولكن لا تقتلوا آباءكم بايديكم كما يقول المسيح واذا التقيتم بهم فى صفوف الاعـداء فمن الذى يمنعكم ايها الاصدقاء من ان يقول كل منكم للآخر : اقتل ابى فاقتل انا اباك .. الانتقام يا رجال الملك .. الحرية للجميع . ان لهذه الصيحة صداها فى جميع الجزر . لقد بدات من سانتو دومينجو وايقظت تاباجو وكوبا ، وان الذى رفع الراية بيننا هو بوكمان ، وهو زعيم اسود لمائة وعشرين زنجيـــا من جمايكا . وكان النصر اول عمل له مع زنوج سانتو دومينجو .. فلنقتد به ، حاملين المشعل فى يد والبلطة فى الاخرى . لا ترحموا البيض . اذبحوا عائلاتهم ودمروا املاكهم . لا تتركوا فيها شجرة واحدة . اقلبوا الارض لكى تبتلع

Looloo
www.dvd4arab.com

البيض . تشجعوا ايها الاصدقاء والاخوان . ستمضى قريبا لقتالهم وابادتهم . ستنتصر او تموت ، فاذا انتصرنا فسوف ننعم بكل ملذات الحياة . اما اذا متنا فسوف نمضى الى السماء ، حيث ينتظرنا فى الجنة كل القديسين ، وحيث يكون نصيب كل منكم حصة مضاعفة من الخمر .

هذه الخطبة العسكرية التى تبدو لكم سخيفة ايها السادة كان لها اكبر الاثر فى نفوس المتمردين . وصحيح ان التمثيلية الايمائية التى قام بها بياسو ، والحماسة التى صاحبت صوته والتقلصات العجيبة التى ارتسمت على قسمات وجهه ، كان لكل ذلك تاثير عجيب وقوة سحرية لا استطيع ان اصفهما ، فقد ارتفع الصراخ والصياح والهتاف . وراح البعض يضربون صدورهم بايديهم ، والبعض الآخر يلوحون بهراواتهم وسيوفهم . وبقى كثيرون منهم سجدا وهم فى نشوة لا يتحركون ولا ينطقون . ودوت الطبول وارتفعت اصوات المزامير وامتزجت بطلقات الرصاص . بدا لى ان الشياطين قد شقت الارض وقلبت الدنيا راسا على عقب .

واتى بياسو باشارة من يده فساد السكون كما لو وقعت معجزة ، وعاد كل زنجى الى مكانه فى صمت . وهذا النظام الذى فرضه بياسو على مواطنيه بالتاثير على عقولهم وارادتهم ملأنى اعجابا فقد بدا لى ان كل جنود هذا الجيش من المتمردين يتكلمون ويتحركون تحت يد الزعيم كملامس البيان تحت اصابع الموسيقى الموهوب .

— ٣٠ —

وهذا منظر آخر .. نوع آخر من الشعوذة والافتتان اثارا اهتمامى ، واعنى به تضميد الجراحات . كان الساحر يقوم فى الجيش بوظيفة مزدوجة وهى طبيب للروح وطبيب للبدن . وكان يبدا بفحص المرضى بعد ان يخلع ثياب الكهنوت ، وبجواره صندوق

Looloo
www.dvd4arab.com

كبير به عيون كثيرة تزخر بالعقاقير والادوات ، وكان نادرا ما يستخدم هذه الادوات ، وفيما عدا حسكة كان يستعملها بمهارة فى الفصادة كان يبدو اخرق فى استخدام الكلابة بدلا من الملقط والسكين بدلا من المشرط .

وكان يقتصر طوال الوقت على وصف التليو وعصير الليمون والبرتقال وخلاصة بعض الاعشاب البرية ويضع جرعات من النبيذ . وكان الدواء الاثير لديه والذى يزعم انه البلسم الشافى يتكون من ثلاث كئوس من النبيذ الممزوج بمسحوق جوز الهند وجوز الطيب وصفار بيضة مشوية تحت الرماد . وكان يستخدم هذه الوصفة لشفاء كافة انواع الجروح والمرض .

وتعلمون طبعا ان هذا الدواء مدعاة للسخرية التامة ، تماما كالعبادة التى يزعم انه مكرس لها . ومن المحتمل ان العلل القليلة التى تم شفاؤها على يديه ما كانت لتكفى لكى يبقى السود على تفهم به لو لم يضم الشعوذة الى عقاراته ولو لم يحاول ايهام السود والتاثير على عقولهم ، فقد كان يقتصر احيانا على مس جراحهم وهو يقوم ببعض الحركات الصوفية ، واحيانا اخرى كان يحسن استخدام الخرافات القديمة ويمزجها باعتقاداتهم الدينية الحديثة ، ويضع فى الجرح حجرا صغيرة ملفوفا فى قطعة من القماش يؤمنون بأن له قوة السحر ، وينسب المريض شفاءه عندئذ الى قوته السحرية ، واذا جاءه احد وقال له ان الجريح الذى عنى به مات متاثرا بجراحه او من ضماداته اسرع يقول فى لهجة متكبرة .

ـ كنت اتوقع ذلك . انه خائن ، فقد انقذ رجلا ابيض فى الحريق الذى شب فى مسكن فلان . وان موته لقصاص على ذلك .

ويصفق المتمردون عندئذ وهم مبهورون وقد ازدادت كراهيتهم للبيض ، ورغبتهم فى الانتقام منهم . وقد استخدم الدجال وسيلة اخرى لشفاء المرضى ادهشتنى غرابتها ، فقد جاءه احد زعماء السود وقد اصيب بجرح خطير فى المعركة الاخيرة . وفحص الساحر الجرح طويلا وضمده بقدر استطاعته ثم صعد الى المذبح وقال :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ كل هذا لا شيء .

ثم مزق ثلاث او اربع ورقات من الكتاب المقدس الذى سرقه من كنيسة الاكول وحرقها ومزج رمادها ببضع قطرات من النبيذ صبه فى كوب وقال للجريح : اشرب من هذا الشفاء .

وشرب الآخر فى غباء وهو يحدق بعينيه الحافلتين بالثقة فى الدجال الذى رفع يديه الى السماء كما لو ليدعو الله ان يباركه . وربما ساهم اعتقاد المريض فى شفائه .

ـ ٣١ ـ

ثم منظر آخر كان الساحر المقنع الممثل الرئيسى له ، ففى المنظر السابق حل الطبيب محل الكاهن ولكن فى هذا المنظر حل الساحر محل الطبيب ، فقد صاح القزم صيحة كبيرة وهو يثب فى خفة فوق الهيكل حيث وقع فوقه جالسا وساقاه ملتويتان فى جونلته المخططة .

ـ اسمعوا ايها الرجال . اسمعوا .. من اراد منكم ان يقرا فى كتاب القدر مستقبل حياته فليقترب .. ساقول له انى درست علوم المصريين .

واسرع اليه عندئذ جمهور من السود والخلاسيين .

قال الساحر بذلك الصوت الاصم الذى خيل لى انى سبق ان سمعته :

ـ واحد واحد .. اذا اتيتمونى جميعا معا فستدخلون القبور معا .

وتوقفوا على الفور ، وفى هذه اللحظة اقترب من ياسو رجل ملون يرتدى ثيابا بيضاء ويضع على راسه مدراسا على طريقة المستعمرين الاثرياء وينطق وجهه بالاستياء . وساله القائد فى صوت خافت : حسنا .. ما الخبر ؟ .. ماذا بك يا رجل ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

كان الرجل هو الزعيم الخلاسى لجيوش كاريز ، وكان معروفا باسم الجنرال ريجو ، وهو رجل شديد الدهاء ، يخفى دهاءه تحت ستار من السذاجة ، وقسوته تحت ستار من الرقة واللين . ورحت افحصه فى اهتمام :

اجاب يقول فى صوت خافت جدا لم يفت اذنى لاننى كنت على مقربة من بياسو :

ـ ايها القائد .. جاء الى المعسكر رسول من جان فرانسوا يقول ان بوكمان قتل فى اشتباك مع مسيو دى توزار وانهم قطعوا راسه ونصبوها فى المدينة افتخارا بانتصارهم .

قال بياسو وقد لمعت عيناه بفرحة خفية لنقص عدد الزعماء وارتفاع قدره : اهذا فقط ؟

ـ ومع رسول فرانسوا رسالة اخرى يريد ان يسلمك اياها .

عاد بياسو يقول : حسنا .. خل عنك هذا الشحوب يا عزيزى ريجو .

قال ريجو معترضا : الا تخشى من سوء وقع هذا الخبر على جيشك ؟

اجاب بياسو : انت لست غبيا كما يبدو عليك يا ريجو . انت لا تعرف قدر بياسو بعد . اخر دخول الرسول ربع ساعة فحسب .

ودنا بعد ذلك من الساحر ، ولم يكن قد سمع ما سمعته ، اذ كان قد بدا عمله كمطلع على الغيب ، وراح يسأل الزنوج المبهورين ويفحص العلامات التى على جباههم وايديهم ويوزع عليهم السعادة تقريبا طبقا لرتبهم وضخامة القطعة النقدية التى يلقيها العبد امامه فى طبق من الفضة ويستانف الساحر عملياته المربحة دون ان يقطع تنبؤاته .

قال : ان تعرج الخط الذى على جبينك يدل على انك سوف تصيب ثروة كبيرة من غير اى جهد او عناء .

« اما ذلك الذى يحمل ثلاث تجعيدات ملتوية فذلك نذير شؤم .

Looloo
www.dvd4arab.com

وصاحبها سوف يغرق لا محالة اذا لم يتجنب الماء جهد استطاعته .

« اما الخطوط الاربعة التى تنطلق من الانف وتتلاقى كل اثنين منها فوق العين فذلك دليل على ان صاحبها سيقع اسير حرب ذات يوم وانه سيبقى فى الاسر طوال حياته .

وامسك لحظة ثم استطرد يقول فى لهجة خطيرة : وقد لحظت هذه العلامة ايها الرفيق على جبين بوج جارجال ، زعيم رجال المورن بوج اليواسل .

واكدت لى كلماته هذه مرة اخرى ان بوج جارجال وقع اسيرا ، وقد تبع قول الساحر همهمة وحزن جماعة من السود يرتدى زعماؤهم سراويل حمراء . كانت هذه الجماعة هى جماعة بوج جارجال .

وعاد الساحر يقول : اما اذا كان هناك على الجبين ما يشبه الشوكة فان صاحبها سوف يبقى عاطلا او مدمنا للشراب .

فاطمه زنجى اسبانى من سانتو دومينجو متقدم فى السن ، طلب منه وهو يجر قدميه ضمادة . كان قد اصيب بجرح فى جبينه واقتلعت احدى عينيه من محجرها وتدلت دامية . وكان الساحر قد نسيها اثناء دورته الطبية . وعندما وقع بصره عليها صاح

— وحلقات مستديرة على الجزء الايمن من الجبين ، على خط القمر دليل على مرض فى العيون .

ثم انثنى الى المريض المسكين وقال له : اى صديق . ان هذه العلامة واضحة على جبينك . دعنى ارى يدك .

اجابه الآخر : وا اسفاه ايها المولى العظيم .. افحص عينى .

رد عليه الساحر ضاحكا : اى صديقى العزيز ، سوف افحص عينك طبعا ، ولكن ارنى يدك .

وقدم له المسكين يده وهو لا يزال يناوه : عينى .. عينى .

قال الساحر : اذا تواجدت على خط الحياة تنطلق حولها

Looloo
www.dvd4arab.com

دائرة فمعنى ذلك ان صاحبها سيكون اعور لان هذه العلامة دليل على فقد احدى العينين ، وانت يا صديقى ستفقد اعور .

اجابه العجوز وهو ينن من الالم : ولكننى اصبحت اعور .

غير ان الشاعر ، ولم يكن يعرف شيئا فى الجراحة ، ابعده فى خشونة واستطرد غير عابىء بالرجل المسكين .

ـ اسمعوا ايها الرجال .. اذا كانت الخطوط السبعة فوق الجبين منعرجة غير واضحة فذلك دليل على ان حياة صاحبها ستكون قصيرة . اما من يحمل بين حاجبيه سهمين مشتبكين فسوف يموت فى معركة . وهنا لا املك الا ان اقول لكم ايها الاصدقاء ان بوكمان ، اشجع الشجعان وتصير الحرية يحمل على جبينه هذه العلامة المشئومة . واذا كان خط الحياة الذى يخترق اليد ينتهى بصليب عند المفصل فهذا دليل على ان صاحبه سوف يشنق .

حبس جميع الزنوج انفاسهم عند سماعهم هذه الكلمات ونظروا الى الدجال فى افتتان ودهشة ، واردف هذا الاخير يقول :

ـ ولكن لا يسعنى التوفيق بين هاتين العلامتين اللتين تهددان بوكمان بخوض معركة وبالشنق فى وقت واحد ، ومع ذلك فان فنى فى قراءة المستقبل لا يمكن ان يخطىء .

وامسك عن الكلام وتبادل نظرة مع بياسو ، وهمس هذا الاخير ببضع كلمات فى اذن مساعده خرج هذا على اثرها على الفور ، وعاد الساحر يقول بلهجته الخبيثة وهو يتحول الى سامعيه :

ـ اما الفم المفتوح والشفتان الدابلتان والنظرة البلهاء والذراعان المتدليان واليد اليسرى ملتوية الى الخارج دون ما سبب واضح فكل ذلك ينم عن غباء طبيعى وخواء وفضول بليد .

ضحك بياسو ، وعاد المساعد فى هذه اللحظة مصطحبا معه زنجيا يعلوه الوحل والغبار ، وقد تمزقت قدماه من الاشواك والحصى مما يدل على انه قطع مسافة طويلة فى المشى . كان هو الرسول الذى اعلن عنه ريجو . وكان يحمل فى يده رزمة مختومة وفى الاخرى

Looloo
www.dvd4arab.com

رق عليه ختم عبـــارة عن قلب مشتعل بداخله حرفان متشابكان يشيران الى الحرفين الاولين من كلمة « الزنوج والخلاسيين » . وتحت الختم هذه العبارة : « انهزم العدو وتحطم الاستبداد . يحيا الملك » . كان هذا الرق هو جواز المرور الذى سلمه جان فرانسوا لترسول . وقدمه هذا الاخير لبياسو ، وبعد ان انحنى حتى كاد جبينه أن يلمس الارض اعطاه الرزمة المختومة ففضها بياسو وقرا الرسائل التى بها ، ووضع احداها فى جيبه ثم دعك الباقية فى يديه وصاح فى صوت حزين :

— اى رجال الملك !

انحنى الجميع فى احترام ، وعاد بياسو يقـــول : اى رجال الملك ، اليكم الرسالة التى أرسلها جان فرانسوا ، اميرال فرنسا وقائد جيوش ملك اسبانيا الى جان بياسو القائد العـام لجيوش البلاد المحتلة .

« انهزم بوكمان ، الزعيم النبيل ، زعيم المائة والعشرين زنجيا من جمايكا والذى اعترفت به حكومة الجنرال بل كولومب ، وقتل فى الاشتباك الذى دار بينه وبين السافل توزار وقطعت راسه وعلقت فى مدينة الكاب .. » ولابد لنا الآن من الانتقام .

قوبلت هذه الكلمات بصمت عميق يشوبه يأس أشد عمقا ، ولكن الساحر اعتدل فى هذه اللحظة فوق الهيكل وهز عصاه البيضاء دليلا على الفوز وقال :

— ان علوم العرافين لم تخدعنى .. ايها الاصدقاء والاخوان ، وانتم جميعا يا من هنا ، بماذا تنبأت ؟ وماذا قلت ؟ ان العلامات التى على جبين بوكمان انبأتنى بان عمره قصير وانه سيموت هنا ، فى معركة . كما انبأتنى خطوط يده بانه سيموت شنقا ، وقد تحققت تنبؤاتى تماما ومات بوكمان فى المعركة ثم شنق . افبعد هذا لا تصدقوننى ؟

تبدل صمت الزنوج الذى قوبل به نبأ موت بوكمان الى اعجاب

Looloo
www.dvd4arab.com

كبير يشوبه خوف اكبر . وراح الساحر يمشي جيئة فوق الهيكل الكبير وقد اتمله الغرور والعجب ؛ وضحك بياسو وقال يخاطبه :

ـ ما دمت تعرف الغيب يا سيدى الكاهن فقل لى ماذا يخبىء المستقبل لجان بياسو ، القائد العام .

توقف الساحر فوق الهيكل فى تيه وفخر ازاء اعجاب الزنوج . وقال للقائد :

ـ تفضل يا صاحب الفخامة :

كان الساحر القزم فى هذه اللحظة اهم رجل فى الجيش كله .. واقترب بياسو منه وفى عينيه شىء من خيبة الامل والحسد . وخاطبه الساحر قائلا :

ـ يدك يا سيدى .

وانحنى لكى يمسك بها ثم قال : هانذا ابدا . ان هذا الخط الطويل فى راحتك دليل على الرخاء والسعادة . وخط الحياة ينبىء عن حياة طويلة ناعمة بعيدة عن المصائب والآلام . وعن شيخوخة هادئة . وهذا الخط المستقيم القصير يدل على حكمة عالية وسخاء وكرم كبيرين . وارى اخيرا ما يجمع العرافون عليه ويقولون عنها انها اسعد العلامات واعنى بها مجموعة من الخطوط الصغيرة على صورة شجرة وارفة تصل الى اعلى اليد وتدل على دوام النعمة والسؤدد ، وخط الصحة طويل يؤكد انك ستعمر طويلا ، وخط الحياة يشير الى حياة زاهرة عامرة بالاعمال الجليلة .

وما ان فرغ الساحر من قوله هذا حتى حول بصره وحدق فى ، ولاحظت مرة اخرى ان صوته مالوف لدى . واستطرد يقول :

ـ ولكن خط الصحة تحوط به بضع دوائر صغيرة مما يدل على انك ستنجز اعمالا ضرورية يمليها عليك الواجب ، وهو يتوقف فى منتصف الكف مكونا نصف دائرة ، وهذا دليل على انك ستتعرض

Looloo
www.dvd4arab.com

لاخطار كثيرة على يد الوحوش الكاسرة . واعنى بهم البيض . اذا انت لم تسرع الى ابادتهم . وخط الحظ تحيط به اغصان صغيرة ترتفع حتى اعلى اليد . دليل على مستقبل العظمة والسيادة الذى ينتظرك . وهو مستقبل لا يعوقه شيء فى الجزء العلوى مما يدل على موهبة فى الحكم . اما الخط الخامس . وهو خط المثلث فهو مستطيل وممدود حتى منبت الاصبع الوسطى ويعدك بالنجاح فى كل ما تقوم به من مشروعات . والآن . دعنى ارى جبينك ايها القائد . ان علامة حدوة الحصان بين الحاجبين دليل على انك ستعرف كيف تنتقم للاهانة والاستبداد . وهذه العلامة موجودة فوق جبينى انا الآخر .

واثارت طريقة الساحر الذى نطق بها عبارته الاخيرة دهشتى . واردف يقول فى نفس اللهجة :

ـ وهذه العلامة توجد عند الشجعان الذين يعرفون كيف يدبرون ثورة باسلة ويحطمون العبودية فى معركة . وان مخلب الاسد الموجود فوق حاجبك دليل على شجاعتك . ومن يحمل هذه العلامة يعرف كيف ينصر القضية التى يعالجها . والذين يتزعمهم مثل هذا الرجل لن يندموا ابدا او يتحسروا على اية خسارة ، فهو وحده يعادل كل رجال جيشه . وانت ذلك الذى وقع عليه اختيار القدر .

قال بياسو وهو يهم بالعودة الى مكانه : شكرا يا سيدى الكاهن .

استانف الساحر يقول : مهلا ياجنرال . اوشكت ان انسى علامة اخرى . ان خط الشمس ظاهر على جبينك بصورة واضحة . دليل على انك تحسن التصرف فى الامور ورغبتك فى اسعاد الناس وفى كرمك وسخائك وميلك الى الاسراف .

وبدا ان بياسو فهم ان السهو جاء منه هو لا من الساحر فاخرج من جيبه كيسا ضخما من النقود والقاه فى الطبق الفضى لكى لا تكذب علامة خط الشمس .

Looloo
www.dvd4arab.com

ومع ذلك فان طالع الزعيم السعيد كان قد احدث اثره فى الجيش فان كل المتمردين الذين اصبحت كلمة الساحر عليهم اقوى واشد من اى وقت مضى منذ ان جاءهم نبأ موت بوكمان تبدل يأسهم الى حماس كبير وراحوا يصيحون وقد وضعوا ثقتهم العمياء فى الساحر .

ـ يعيش الساحر .. يعيش بياسو .

وتبادل الساحر وبياسو النظر ، وخيل لى ان ابتسامة الساحر ترد على ابتسامة القائد العام . ولا ادرى لماذا شغل ذلك الساحر ذهنى فقد خيل لى اننى سبق أن سمعت فى مكان آخر صوتا يشبه صوته . واردت ان اتأكد فقلت :

ـ ايها الكاهن .. ايها الطبيب الكاهن .

تحول الى فجأة فقلت له : ما زال هنـــاك شخص لم تقرأ له طالعه ، وهو انا .

عقد ذراعيه على الشمس الفضية التى تغطى صدره الخشن ولم ينطق فقلت :

ـ وددت ان اعرف بم ينبئك مستقبلى ، ولكن زملاءك المخلصين سلبونى ساعتى ونقودى ، وانت لا تقرأ المستقبل مجانا .

دنا منى حتى كاد يلامسنى وقال فى صوت اصم : انت مخطىء . ارنى يدك .

بسطت كفى له وانا احدق فى وجهه . كانت عيناه تتألقان . وفحص يدى لحظة ثم قال :

ـ حين يكون خط الحياة مقطوعا فى النصف بعلامتين متعارضتين فمعنى ذلك موت قريب .. وعلى هذا فان موتك وشيك .

وحين يكون خط الصحة فى وسط اليد ويجتمع خط الحياة وخط الحظ فى منبتهما فهـذا معناه انه لا يجب ان تتوقع ميتة طبيعية . واذا اخترق الخط الذى يبدأ من تحت السبابة خط آخر فسوف يموت صاحبه ميتة عنيفة . هل تسمع ؟ .. استعد لكى تواجه ميتة عنيفة .

Looloo
www.dvd4arab.com

كان يشوب هذا الصوت الذى ينذر بالموت رنة مرحة . واصغيت الى صاحبه فى ازدراء وعدم مبـــالاة وقلت وانا ابتسم ابتسامة ساخرة :

ـ ايها الســـاحر .. انت ذكى ، ولا ريب انك تحسن قراءة المستقبل .

ازداد دنوا منى وقال : هل تشك فى علمى ؟ حسنا . اسمع اذن . ان خط الشمس فوق جبينك مقطوع ، وهذا دليل على ان لك عدوا هو صديقك فى الواقع وصديقا هو فى الواقع عدوك .

كان معنى العبارة الاخيرة يتركز حول بيرو الخائن الذى احببته وغدر بى اما الصـــديق الذى كنت اظنه عدوا فهو هابيبراه التى انبتت ثيابه الملوثة بالدماء على انه مات بشجاعة واخلاص .

صحت بالرجل : ماذا تعنى ؟

اجاب : اصغ الى حتى النهاية . اننى قرات لك المستقبل وهانذا أقرأ لك الماضى . ان خط القمر ينحنى فوق جبينك . وهـــذا معناه ان زوجتك قد اختطفت .

اجفلت ، واردت ان اهب من مقعدى ولكن حراسى منعونى وقال الساحر :

ـ انت لست صبورا فاستمع حتى النهاية . ان الصليب الصغير الذى فوق الخط المنحنى يدل على ان زوجتك اختطفت فى نفس اليوم الذى تزوجتما فيه .

صحت : ايها الشقى ... انت تعرف اين هى .. من انت ؟

وحاولت التخلص من حراسى وانتزاع قناعه ولكننى اضطررت مرة اخرى الى الخضوع للقوة والكثرة . ورايت الساحر يبتعد وهو يقول :

ـ هل تصدقنى الآن ؟ .. استعد لموت وشيك .

ـ ٣٢ ـ

كان لابد من ان تقع هذه المأساة الجديدة تحت عينى لـــكى تشغلنى وتصرف ذهنى لحظة عن الحيرة التى أوردتنى فيها المهزلة السخيفة التى قام بها بياسو وشريكه امام الجنود .

Looloo
www.dvd4arab.com

كان بياسو قد عاد وجلس في مقعده والساحر على يمينه وريجو على يساره وعقد الساحر يديه فوق صدره وبدا غارقا في تأملات عميقة في حين راح بياسو وريجو يمضغان الثيغ . واقبل احد المساعدين يسأل القائد ان كان يحب ان يسرح الجيش ، ولكن اقترب في هذه اللحظة بالذات ثلاث جماعات من الزنوج من مدخل المغارة وهم يصيحون غاضبين . كان مع كل جماعة منهم اسير تريد تسليمه لبياسو لا لكي يعفو عنه وانما لكي تعرف نوع التعذيب الذي يحلو للزعيم ان يفرضه عليه . وكان صياحهم اكبر دليل على ذلك فقد كانوا يصيحون قائلين : الموت لهم .. الموت لهم .

امرهم القائد بالسكوت باشارة من يده ، وبان يتقدم الاسرى الثلاثة الى عتبة الخيمة . ودهشت حين عرفت اثنين منهم فقد كان احدهما هو المواطن الجنرال كادو الذي اشار في اجتماع المجلس بقطع رءوس جميع الزنوج . اما الآخر فكان المزارع الغامض الذي يبدي كراهيته للخلاسيين مع ان البيض يعدونه خلاسيا مثلهم . اما الثالث فكان يبدو انه ينتمي الى صغار العاملين . كان يرتدي مئزرا من الجلد وقد شمر عن ساعديه . وقد تم اسر الثلاثة ، كل على حدة وهو يحاول الاختفاء في الجبال .

وكان العامل البسيط هو الذي استجوبه بياسو في البداية فقد سأله قائلا : من انت ؟

— انا جاك بيلان ، نجار بمستشفى الآباء بالكاب .

ارتسمت في عيني بياسو امارات الدهشة المشوبة بالخجل وقال وهو يجز على شفته السفلى : جاك بيلان ؟

اجاب الآخر : نعم . الا تعرفني ؟

رد عليه القائد قائلا : ابدا انت بمعرفتي بان تحييني .

قال النجار : انني لا احيي عبدي .

صاح القائد العام : ويحك ! .. عبدك ايها الشقي ؟

اجاب النجار : نعم . انا اول سيد لك . تتظاهر بانك لا تعرفني ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

ولكن لا تنسى يا جان بياسو انني بعتك بثلاثة عشر قرشا لتاجر من سانتو دومينجو .

انقلبت سحنة جان بياسو في حين استطرد الابيض يقول : حسنا . يبدو انك تخجل لانك خدمتني . افلا يجب على جان بياسو ان يفخر ويزهو لانه كان عبدا لجاك بيلان ؟ .. ان امك بالذات ، تلك العجوز المجنونة ، طالما نظفت حانوتي وكنسته . ولكنني بعتها اخيرا لمستشفى الاباء فقد شاخت واصبحت لا تقوى على الخدمة بحيث ان مدير المستشفى لم يرض ان يدفع لي فيها اكثر من اثنين وثلاثين جنيها . هذه هي قصتك وقصتها ، ولكن يبدو لي انكم اصبحتم متكبرين يا معشر الزنوج والخلاسيين وانك نسيت الوقت الذي كنت تقوم فيه على خدمة سيدك جاك بيلان وانت جاث على ركبتيك .

اصغى بياسو اليه وقد انقلبت سحنته حتى بدت كسحنة السمر الكاسر ثم قال : حسنا .

ثم تحول الى الزنوج الذين اتوا به وقال : اعدوا حاملين واوحين من الخشب ومنشارا وخذوا هذا الرجل . وانت يا جاك بيلان النجار ، اشكرني لانني اعد لك ميتة نجار .

وضحك وهو يتصور التعذيب البشع الذي سيلاقيه سيده القديم . وسرت في بدني قشعريرة . ولكن جاك بيلان لم يجزع وتحول الى بياسو في كبرياء وقال :

— نعم .. يجب ان اشكرك لانني بعتك بثلاثة عشر قرشا .

وسيق الى مصيره المحتوم .

— ٣٢ —

شهد الاسيران الآخران هذا المشهد وهما يكادان يموتان فرقا ، وتناقض منظرهما المتواضع الهلوع مع ثبات النجار وكبريائه وراحا يرتعدان .

Looloo
www.dvd4arab.com

وتاملهما بياسو ، الواحد بعد الآخر ، كما يتامل الثعلب فريسته، ثم راق له ان يطيل عذابهما فتبادل مع ريجو حديثا مستفيضا عن أنواع التبغ المختلفة مؤكدا له ان تبغ هافانا لا يصلح الا للتدخين فى السيجار وانه لا يعرف اجود من تبغ اسبانيا ، وكان القفيد بوكمان قد ارسل اليه برميلين منه استولى عليهما من محل مسيو ليباتو ، مالك جزيرة السلحفاة ، ثم تحول الى الجنرال كادو فجاة وقال له :

ـ وانت ، ما رايك ؟

ولم يكن الرجل يتوقع مثل هذا السؤال فاجفل واجاب متلعثما :

ـ انني اشاركك رايك يا صاحب الفخامة .

قال بياسو : عده مجاملة . انني اريد رايك انت لا رايي انا . هل تعرف تبغا اجود من ذلك الذى استولينا عليه من محل مسيو ليباتو ؟

اجاب كادوا ، وكان بياسو قد اطربه انزعاجه : كلا يا مولاى .

قال الزعيم فى فروغ صبر : جنرال .. صاحب فخامة .. مولاى .. ومع ذلك فانت اوستقراطى .

صاح الجنرال : اوه ، كلا حقا . انني مواطن صالح وصديق للزنوج .

قال بياسو فى غلظة : لا يكفى ان تكون صديقا للزنوج وانما يجب ان تكون صديقا للملونين ايضا .

واظن انني سبق ان قلت ان بياسو من قبيلة ساكاترا .

اجاب كادو فى ذلة : هذا ما كنت اقصده . انني صديق لكل انصار السود والمولدين .

طرب بياسو لاذلاله رجلا ابيض وقال : السود والمولدون ؟ .. ما معنى هذا ؟ .. هل اتيت هنا لكى تهيننا بهذه الكلمة البشعة التى اخترعها البيض لتحقيرنا وازدرائنا ؟ .. لا يوجد هنا غير رجال

Looloo
www.dvd4arab.com

ملونين وسود . هل تسمع ايها السيد المستعمر ؟

قال كادو : انما هى عادة سيئة ادمنتها منذ الصغر فاصفح عنى . لم اقصد اهانتك يا مولاى .

ـ كفاك رياء وتملقـــا .. اقول لك اننى لا احب اســاليبك الارستقراطية .

اراد الرجل ان يعتذر مرة اخرى فقـــال وهو يتلعثم : لو انك عرفتنى ايها المواطن ..

صاح بياسو فى غضب : مواطن ؟ .. من تظننى ؟ .. اننى اكره هذا اللقب الثورى . افتكون من انصار الثورة ؟ .. الا تعرف انك تتحدث مع القائد العام لجيوش الملك .. مواطن ! .. يا للوقاحة !

لم يدر صديق الزنوج المسكين كيف يخاطب هذا الرجل الذى يرفض لغة الارستقراطيين ولغة الثوار ، وحار فى امره وامتلأ رعبا . ولم يكن بياسو الا متظاهرا فى غضبه واستمتع بحيرة الرجل وارتباكه ايما استمتاع . وقال المواطن الجنرال اخيرا :

ـ وا أسفاه ! انك تسىء الظن بى ايها المدافع النبيل عن حقوق نصف الجنس البشرى .

تفرس بياسو فى وجهـــه وقال : اذن فانت تحب الســود والخلاسيين ؟

صاح المواطن كادوا : اوه ، كل الحب .

ابتسم بياسو وقال : آه .. آه .. يسرنى ان ارى فيك صديقا لقضيتنا . وعلى هذا فلابد انك تكره المستعمرين الاشرار الذين قابلوا تمردنا باقسى انواع التعذيب . ولا ريب انك ترى معى ان المتمردين الحقيقيين ليسوا السود وانمـــا هم البيض ما داموا يتمردون على الطبيعة البشرية . ولا ريب انك تكره هؤلاء الوحوش .

اجاب كادوا : اننى امقتهم .

واستطرد بياسو : حسنا . ما رايك فى رجل عرض ان يخمد ثورة العبيد الاخيرة بقطع خمسين راسا من السود على جانبى الشارع الذى يقطن فيه .

Looloo
www.dvd4arab.com

امتقع وجه كادو حتى حاكى وجوه الموتى ولم ينطق .

ـ ما رايك فى رجل اقترح أن يحيط مدينة الكاب بشريط من رءوس العبيد ؟

صاح المواطن الجنرال : العفو .. العفو ...

قال بياسو فى برود : وهل تراني اهددك .. دعنى افرغ .. بشريط من الرءوس حول المدينة .. ما رايك ، تكلم .

اعادت عبارة بياسو « وهل تراني اهددك » بعض الامل الى قلب كادو ، وحسب ان الزعيم ربما نميت اليه هذه الامور دون ان يعرف مصدرها فاجاب فى شيء من الثبات اتقاء لكل افتراض مخالف :

ـ اظن انها جريمة بشعة .

ابتسم بياسو وقال : حسنا . واى عقاب تقترح ان نوقعه على هذا المجرم ؟

وهنا تردد المسكين ولم يدر ماذا يقول فقال بياسو : هل انت صديق للسود ام لا ؟

واذ راى المواطن كادو ان بياسو يتكلم بلهجة عادية ليس فيها اى عداء نحوه قال فى صوت ضعيف : ان هذا المجرم يستحق الموت .

قال بياسو فى هدوء وهو يلفظ التبغ الذى كان يمضغه : حسنا.

واعاد تظاهره بعدم الاكتراث الامان والطمـــــانينة الى صديق الزنوج المسكين ، وبذل كادو جهدا جبارا لـكى يبعد الشكوك التى اثقلت عليه وقال :

ـ لم يثمن احد النجاح والنصر لقضيتكم مثلى ... .

قاطعه بياسو قائلا : قل لى اين محلاتك ومخازنك ؟ فان جيشى بحاجة الى المؤونة ، ولا ريب ان مزارعك غنية ومحلك التجارى ناجح ما دمت تتعامل مع كل تجار العالم .

راى كادو ان يقوم بمحاولة اخيرة فقال فى خـــجل : اى بطل الانسانية ، انهم ليسوا تجارا وانما هم فلاسفة ورجال خير واصدقاء للسود .

Looloo
www.dvd4arab.com

قال بياسو وهو يهز راسه : ويحك ! .. اراك عدت الى كلماتك الغامضة . اذا لم تكن محلات او مخازن لكى تنهبها ففيم تصلح اذن ؟

اشرق نور من الامل فى قلب كادو وهو يسمع هذا السؤال وقال :

ـ الديك محاسب فى الجيش ايها المقاتل الباسل ؟

سأله الزعيم : ماذا تعنى ؟

اجاب كادو بقدر ما سمح له خوفه من حماس : ان لمثل هذا الرجل ضرورة كبيرة . فهو الذى يدير ميزانية الدولة ، وهو الذى يوفر المال لشراء ما تحتاج اليه من مؤونة ومعدات . ويوازن بين الاصول والخصوم لكى يعم الرخاء .

قال بياسو وهو ينحنى نحو الساحر : ماذا تعنيه بهذه الكلمات المتناسقة تناسق حبات مسبحتك ؟

هز الساحر كتفيه دليلا على جهله وازدرائه فى حين استطرد المواطن يقول :

ـ وقد درست علم الاقتصاد على يدى كبار الاقتصاديين امثال تورجو ورايتال وميرابو ، وطبقت نظرياتهم عمليا واصبحت خبيرا فى الامور التى تهم الحكومات والدول .

ابتسم ريجو وقال متهكما : ارى ان الاقتصادى لا يقتصد فى كلماته .

وصاح بياسو : قل لى ايها الثرثار .. هل نظن ان لدى دولا وحكومات لكى احكمها .

ـ ليس الآن ايها الرجل العظيم . ولكن سياتى ذلك دون شك . ويمكنك ان تستفيد من خبرتى لكى تدير شئون جيشك .

قال بياسو : اننى لا ادير جيشى ايها المزارع وانما اقوده .

قال المواطن : حسن . سأديره انا اذن . فان لى معرفة كبيرة لمضاعفة عدد البهائم .

Looloo
www.dvd4arab.com

زمجر بياسو وقال : اتظن اننا نربى المواشى ؟ انما نحن نأكلها . وعندما نفتقر اليها ساجتاز الحدود واستولى على الابقار والخراف الاسبانية التى ترعى فى السهول الفسيحة . ثم انه سيكون من دواعى سرورى ان انتقم من هؤلاء الاسبانيين ، فهم الذين غدروا بأوجيه وسلموه للبيض . وهانت ترى اننى لست منزعجا من ناحية نقص المؤن ، وانتى لست بحاجة الى علومك الضرورية .

اثار هذا التصريح ارتباك الاقتصادى المسكين ولكنه بذل مع ذلك محاولة اخيرة لكى ينجو بجلده فقال :

ـ لم تقتصر دراساتى على تربية المواشى وانا على دراية تامة باعمال اخرى يمكن ان تفيدك كثيرا . سابين لك كيف تستغل منتجم الفحم .

قال بياسو : وقيم يهمنى ذلك . عندما احتاج الى الفحم ساحرق ثلاثة فراسخ من الغابات .

استطرد الاسير : سارشدك الى فائدة كل نوع من الخشب .

صاح بياسو وقد نزع صبره : انا لست بحاجة الى ضباط ولا يوجد فى جيشى غير وظيفة شاغرة هى وظيفة خادم . اسمع ايها الفيلسوف . اذا كانت هذه الوظيفة تناسبك فسوف تقوم بخدمتى وانت جاث على ركبتيك . ستنثينى بالبابب واليخنى وحساء السلحفاة ، وستقف خلفى وتمروح بالمروحة كما يفعل هذان الغلامان اللذان تراهما .. ايه .. اجب ، هل تريد هذه الوظيفة ؟

ولم يكن المواطن يفكر فى شىء غير انقاذ حياته باى ثمن فانحنى انحناءة كبيرة وقد ارتسمت على وجهه دلائل الفرح والامتنان . وساله بياسو :

ـ انت تقبل اذن ؟

ـ وهل يمكن ان تشك لحظة واحدة ايها السيد الكريم فى اننى اتردد امام خطوة كهذه لكى اخدم شخصك .

اتسعت ابتسامة بياسو وازدادت تألقا ازاء هذا الرد وعقد

Looloo
www.dvd4arab.com

ذراعيه ونهض فى انتصار ودفع بقدمه راس الرجل الراكع امامه وصاح فى صوت مرتفع :

ـ طاب لى ان ارى الى اى مدى يبلغ جبن البيض بعد ان رايت مدى قسوتهم وفظاعتهم . ايها المواطن كادو . انني ادين لك انت بهذا المثل المزدوج . انني اعرفك . كيف امكن ان تبلغ بك الحماقة الى حد ان لا تلحظ ذلك . انك انت الذى اشرفت على تعذيب السود فى شهور يونيه ويوليه واغسطس ، وانت الذى نصبت خمسين راسا من السود على جانب الشارع الذى تقيم فيه ، وانت الذى اردت ان تذبح عبيدك الخمسمائة الذين ابقيتهم اسرى فى مزرعتك وان تحيط مدينة الكاب بسياج من رؤوسهم ، ولو انك استطعت ان تجعل من راسى انا شعارا لفعلت . وانت الآن تعتبر نفسك سعيدا لانني رضيت ان تكون خادما لى . كلا ، كلا . انني احرص على شرفك اكثر منك ، وساعفيك من هذه الاهانة . اعد نفسك للموت .

واتى باشارة فدفعه الزنوج الى جوارى . ولم يستطع المسكين ان ينطق بكلمة واحدة ووقع عند قدمى وقد اغمى عليه .

— ٣٤ —

قال الزعيم وهو يلتفت الى الاسير الاخير واعنى به المستعمر الذى يشتبه البيض فى انه من الخلاسيين والذى ما كان ليتردد فى مبارزة من يوجه اليه هذه الاهانة :

ـ جاء دورك الآن .

وارتفع صخب شديد من جموع الجيش غطى على رد المستعمر ، فقد صاح الجميع يقولون وهم يجزون على اسنانهم ويلوحون بقبضاتهم فى وجه الاسير : الموت ... الموت .

قال احد الخلاسيين معبرا عن راى الجميع : انه رجل ابيض ايها الجنرال ، ويجب ان يموت .

Looloo
www.dvd4arab.com

استطاع المزارع ان يتكلم اخيرا رغم ما يعانيه من رعب وخوف فقال : كلا ، كلا يا سيدى الجنرال . انا لست ابيض . هذه فرية شنيعة . انا خلاسى مولد مثلكم ، من ام زنجية كامهاتكم وبناتكم .

صاح السود محتقين . انه يكذب . فهو ابيض . وطالما ابدى كراهيته للسود والخلاسيين .

عاد الاسير يقول : ابدا .. ابدا .. انما هم البيض الذين اكرههم . انا اخ لكم وطالما ناديت معكم بان الزنوج هم الاسياد وان البيض هم العبيد .

صاح الجميع ثانية : ابدا .. ابدا .. الموت للرجل الابيض .. الموت للرجل الابيض .

وعاد المسكين يقول فى يؤس : انا خلاسى .. انا منكم .

سأله بياسو فى برود : وما دليلك ؟

اجابه الآخر فى قلق : دليلى ؟ .. هو ان البيض احتقرونى دائما .

قال بياسو : هذا جائز . ولكنك وقح .

تقدم شاب خلاسى وخاطب المستعمر قائلا : تقول ان البيض احتقروك وهذا صحيح ، ولكنك كنت تتظاهر نظير ذلك بانك تحتقر الخلاسيين الذين يضمونك الى صفوفهم ، وقد قيل انك بارزت رجلا ابيض لانه قال لك انك تنتمى الى عشيرتنا .

علا الصخب وارتفعت صيحات الجميع يطالبون بالموت للمستعمر الذى رمانى بنظرة جانبية تنطق باليأس والرجاء فى نفس الوقت وبكى وهو يقول :

ـ هذه فرية . وانى لسعيد وفخور بانتمائى الى السود فانا خلاسى .

قال ريجو فى هدوء : الواقع لو انك خلاسى كما تقول ما استخدمت هذه الكلمة . لعلكم تعرفون ايها السادة ان الخلاسيين يرفضون

Looloo
www.dvd4arab.com

هذه الكلمة فى غضب لانها صفة اخترعها البيض لتحقيرهم .

قال المسكين : ويح نفسى ! وهل اعرف ما اقول يا سيدى القائد العام . الدليل على انني خلاسى هى هذه الدائرة السوداء التى تستطيع ان تراها حول اظافرى .

ولكن بياسو دفع يده بعيدا عنه قائلا : ليست لى خبرة الكاهن الذى يستطيع ان يعرف من انت بفحص يدك . ولكن اصغ لى . ان جنودى يتهمونك ، البعض بانك ابيض والبعض بانك اخ كاذب ، واذا صح ذلك فيجب ان تموت . ولكنك تقول انك تنتمى لعشيرتنا وانك لم تنكر لها ابدا ، وليس امامك غير وسيلة واحدة لكى تبرهن بها على ما تقول وتنقذ نفسك .

ساله المستعمر فى لهفة : وما هى يا سيدى الجنرال ... ما هى ؟ .. انني على استعداد .

قال بياسو ببرود : هى ان تاخذ هذا الخنجر وتطعن به هذين الاسيرين الابيضين .

واشار الينا بيده وهو يقول ذلك . وارتد المزارع مرتاعا امام الخنجر الذى بسطه له بياسو وهو يبتسم ابتسامة شيطانية .

وقال الزعيم : حسنا ؟ .. هل تتردد ؟ ومع ذلك فهذه هى الوسيلة الوحيدة التى تثبت لى ولجيشى انك لست ابيض وانك منا ... هيا .. هيا .. استقر على امرك ولا تضيع وقتى .

شردت عينا الاسير وتقدم خطوة نحو الخنجر ثم تخاذلت يداه وتوقف مكانه وهو يحول بصره عنه . وسرت القشعريرة فى بدنه .

وصاح بياسو فى فروغ صبر : هيا . انني على عجل من امرى . لك الخيار . اما ان تقتلهما بيدك واما ان تموت معهما .

وقف المستعمر مكانه وقد سمرته فظاعة الموقف فقال بياسو وهو يتحول الى السود :

ـ حسنا جدا .. انه لا يريد ان يكون جلادا ويفضل التعذيب . ارى انه ابيض كما تقولون .

Looloo
www.dvd4arab.com

تقدم السود للامساك به . وكانت لهذه الحركة التى اتوا بها تاثيرا عليه فى الاختيار بين الحياة والموت . فان الافراط فى الجبن له شجاعته ايضا فقد اندفع نحو الخنجر الذى بسطه بياسو له دون ان يمنح نفسه وقتا للتفكير فيما سيقدم عليه وهجم على المواطن الذى يقف بجوارى كما يهجم النمر على فريسته .

وبدا عندئذ عراك رهيب فان صديق الزنوج الذى عذبه بياسو باستجوابه بالطريقة التى عرفناها كان قد غرق فى يأس كئيب وراح يتابع ما يحدث بين الزعيم والمزارع فى غباء وهو لا يفكر الا فى التعذيب الذى ينتظره ودون ان يفهم منه شيئا . ولكنه عندما راى المستعمر يهجم عليه والخنجر يلمع فى يده فوق راسه احس بالخطر واعتدل فى وقفته وامسك بيد القاتل وهو يصيح فى صوت مؤثر :

ـ الرحمة .. الرحمة .. ماذا تريد بى ؟ .. ماذا فعلت لك ؟

اجاب الخلاسى وهو يحاول تخليص يده منه وينظر اليه بعينين تنطقان بالذعر :

يجب ان تموت يا سيدى ، فدعنى اقتلك . لن اؤلمك .

قال الاقتصادى : الموت بيدك انت ؟ ولماذا ؟ ابق على . لعلك لست حاقدا على لاننى قلت انك خلاسى منذ ايام . ولكن اترك لى الحياة . انى اعترف واقر الآن انك ابيض .. انت ابيض . وساصرخ بذلك فى كل مكان . ولكن ارحمنى .

صاح الخلاسى محنقا وهو يخشى ان يكون السود قد سمعوا هذا التصريح : اسكت .. اسكت ...

ولكن الآخر صاح دون ان يصغى اليه قائلا انه ابيض وانه من اروما طيبة . وبذل الخلاسى جهدا اخيرا لكى يسكته ، وتخلص من اليد المسكة به وأغمد الخنجر فى صدر صاحبها . واحس الاقتصادى المسكين بنصل الخنجر يغوص فى جسده وعض الذراع الممسكة به فى غل وهو يصيح : ايها الوغد .. انك تقتلنى .

Looloo
www.dvd4arab.com

والقى نظرة الى بياسو وهو يقول : انقذنى يا نصير الانسانية .
ولكن القاتل اغمد الخنجر بقوة . وانبثق الدم حول يده وعلى وجهه . وتخاذلت ساقا المسكين وتهاوت يداه وانطفأت الجذوة فى عينيه واطلق صرخة صماء من بين شفتيه ثم سقط ميتا .

— ٣٥ —

هذا المشهد الذى كنت اتوقع ان اقوم بدورى فيه وشيكا جمدنى من الرعب . اما نصير الانسانية ، فقد شهد عراك الرجلين بعين جامدة . وعندما انتهى الامر تحول الى الغلامين المذعورين وقال :
— الى بيمض التبغ .
وراح يمضغ التبغ فى هدوء .

وكان الساحر وريجو واقفين جامدين ، وبدا الروع فى وجوه السود انفسهم ازاء هذا المشهد البشع الذى قدمه لهم زعيمهم .
ومع ذلك فقد بقى رجل ابيض اجير لابد من قتله ، واعنى به انا نفسى ، فقد حان دورى . والقيت نظرة الى هذا القاتل الذى سيفدو جلادى ، ولم يسعنى الا ان ارثى لحاله . فقد ازرقت شفتاه وراحت اسنانه تصطك واعضاؤه ترتجف . ولكن لا يفتأ يرفع يده الى وجهه بحركة آلية لكى يمسح آثار جريمته . واخذ ينظر فى غباء الى الجثة التى عند قدميه وهو لا يستطيع ان يحول عنهـــا عينيه الدائفتين .

وانتظرت اللحظة التى سيفرغ فيها من مهمته بالقضاء على . وكنت فى موقف غريب مع ذلك الرجل ، فقد اوشك ان يقتلنى قبل ذلك لكى يثبت انه ابيض ولكنه سيقتلنى الآن لكى يبرهن على انه خلاسى .

وقال بياسو يخاطبه : حسن . اننى مسرور منك يا صديقى .
والقى نظرة الى ثم اردف : واننى اعفيك من قتل الرجل الآخر ، فامض . اننى انادى بك اخا وجلادا لجيشنا .

Looloo
www.dvd4arab.com

وما ان فرغ الزعيم من كلمـاته هـذه حتى خرج زنجى من بين الصفوف وانحنى ثلاث مرات امام بياسو ثم صاح :

ـ وانا يا سيدى الجنرال ؟

سأله بياسو : ماذا تعنى ؟

قال الزنجى : الن تفعل شيئا من اجلى يا سيدى الجنرال ؟ انك اعطيت الآن وظيفة لهذا الـكلب الابيض الذى يقتل لـكى نعترف بنسبته الينا . الا تعطينى وظيفة لى انا الآخر بحكم كونى اسود ؟

بدا الارتباك على بياسو لانه لم يكن يتوقع مثل هذا الطلب ، وانحنى نحو ريجو ، وقال له هذا الاخير :

ـ لا يمكن ارضاؤه ، فحاول التخلص منه .

وقال بياسو يخاطب الاسود : اتريد ترقية ؟ .. ليس احب الى من ذلك . اية رتبة تريد ؟

ـ اريد ان اكون ضابطا !

قال القائد العام : آه . تريد ان تكون ضابطا ؟ .. وما هى مؤهلاتك لذلك ؟

قال الاسود فى حماس : انا الذى اشعلت النار فى بيت لاجوست فى اوائل اغسطس ، وانا الذى ذبحت مسيو كليمان المزارع ونصبت راس مدير اعماله على طرف حربة وذبحت عشر نساء بيضاوات وسبعة اطفال ، وعلقت راس واحد منهم شـــعارا لجنود بوكمان البواسل . ثم حرقت بعد ذلك اربع عائلات فى احدى غرف حصن جاليفيه . مات ابى شهيد التعذيب فى مدينة الكاب ومات اخى مشنوقا فى دوكرو واوشكت ان اموت انا نفسى رميا بالرصاص ، وحرقت ثلاث مزارع للبن وست مزارع لقصب السكر وقتلت مولاى مسيو نوبه وزوجته ...

قال ريجو : وفر علينا مواهبك هذه .

وكانت وداعته تخفى قسوة حقيقية ولكنه كان قاسيا فى احتشام ولم يكن يحتمل الافراط فى الاجرام .

Looloo
www.dvd4arab.com

وعاد الزنجى يقول فى زهو : استطيع ان اذكر الكثير غير ذلك ، ولكن لا ريب انك تجد ان هذا يكفى لكى استحق رتبة الضابط ولكى احمل كتفيه على سترتى كزملائى هؤلاء .

واشار الى مساعدى بياسو ، وبدا على القائد العام انه يفكر ثم خاطب الزنجى فى لهجة خطيرة :

ـ يسرنى ان امنحك هذه الترقية فانا راض عن خدماتك . ولكن لابد من شىء آخر ، فهل تعرف اللاتينية ؟

حملق الشقى فيه وقال : ماذا .. ايها الجنرال ؟

عاد بياسو يقول : نعم .. هل تعرف اللاتينية ؟

وازدادت دهشة الزنجى وعاد يقول : اللاتينية ؟

اجاب بياسو : نعم ، نعم . اللاتينية .

ونشر رايه عليها بضع كلمات باللاتينية معناها « خروج اسرائيل من مصر » . ثم سأله : اشرح لى معنى هذه الكلمات .

وقف الجندى جامدا لفرط ذهوله ودهشته وراح ينقل عينيه المذعورتين من الزعيم الى العلم ومن العلم الى الزعيم ، وقال بياسو فى فروغ صبر :

ـ هيا تكلم . ما معنى هذه الكلمات ؟

حك الزنجى راسه وفتح فمه واطبقه اكثر من مرة واخيرا قال فى ارتباك : لا ادرى يا سيدى الجنرال ... فاننى لا اعرف اللاتينية .

ارتسم الغضب والسخط على وجه بياسو وقال : كيف هذا ايها الغر الاحمق .. اتريد ان تكون ضابطا وانت لا تعرف اللاتينية ؟

تمتم الزنجى مرتبكا : ولكن يا سيدى القائد ...

قال بياسو فى حدة ظاهرة : اسكت . لا ادرى لماذا لا ارميك بالرصاص فى التو لوقاحتك هذه . ارايت يا ريجو الى هذا الرجل الوقح الذى لا يعرف اللاتينية ويريد مع ذلك ان يكون ضابطا ! ايمكن لمن لا يعرف اللاتينية ان يكون ضابطا يا سيدى الكاهن ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

اجاب الكاهن : كلا . ان هذا لا يمكن أن يكون .

ـ ان هذا الاخ الذى عينته جلادا للجيش والذى تغبطه انت يعرف اللاتينية .

وتحول الى الجلاد الجديد وساله وهو يغمزه بعينه خفية : اليس صحيحا انك تعرف اللاتينية ايها الصديق ؟

وادرك الخلاسى ما ينتظره منه القائد فاجاب وهو لا يزال يرتعد فرقا : طبعا . واتقنها كل الاتقان .

تحول بياسو عندئذ الى الزنجى وصاح به محتدا : عد وقف فى الصف الذى كنت فيه ولا تطمع فى ترقية بعد الآن والا شنقتك .

وعاد الزنجى الى مكانه مشدوها ومروعا فى نفس الوقت . واطرق براسه خجلا من رفاقه الذين راحوا يمطرونه بسخريتهم لنطاوله ويشيدون بسعة علم القائد العام .

كان فى هذا المشهد جانبا مضحكا ، ومع ذلك فقد دلنى على ذكاء بياسو الخارق ، فان الوسيلة المضحكة التى استخدمها بكل هذا النجاح لاحباط الاطماع المتشددة فى جيش من المتمردين جعلتنى اتاكد من غباء الزنوج ودهاء زعيمهم .

ـ ٣٦ ـ

وكانت ساعة الغداء قد اقبلت فجيء لبياسو بقشرة سلحفاة كبيرة فيها نوع من البخني يتصاعد منه البخار وقد استبدل لحم الضان بلحم السلحفاة نفسها وكرنبة مسلوقة . وبطبقين كبيرين باحدهما عنب وبالآخر تين ، ورغيف من خبز الذرة وقربة من النبيذ . واخرج من جيبه بضعة فصوص من الثوم دعك بها الرغيف ثم راح يأكل دون أن يرفع أحد جثة القتيل من امامه ، ودعا ريجو ليشاركه الطعام .

اما الساحر فلم يشترك معهما ، وادركت عندئذ انه ، كغيره من

Looloo
www.dvd4arab.com

السحرة ، لا يتناول الطعام ابدا امام احد حتى يعتقد الناس انه من عنصر آخر غير عنصر سائر البشر العاديين وانه يعيش دون طعام .

وفيما كان بياسو ياكل امر احد مساعديه ان يبدأ الاستعراض فراحت جموع السود تمر امام المغارة في نظام . وكان زنوج المورن روج البادئين ، وكانوا نحو اربعة آلاف ، ينقسمون الى كتيبات صغيرة صفوفها متراصة ويقودهم زعماء يرتدون سراويل واحزمة حمراء . وكانوا جميعا ضخام الجسم اقوياء ، يحملون البنادق والسيوف ، وذلك لعدم استطاعتهم الحصول على اسلحة اخرى ، ولم يكن لهم علم يميزهم ، وانما كانوا يمشون في صمت ووجوم .

واذ راى بياسو هذه الجموع تمر امامه انثنى الى ريجو وقال له بالفرنسية :

— متى تخلصني مدفعية بلانشلاند وروفري من اشقياء مورن روج هؤلاء ؟ انني امقتهم ، فهم جميعا كونجوليون تقريبا ثم انهم لا يحسنون القتل الا في المعارك معتقدين في ذلك بزعيمهم الاحمق ، مثلهم الاعلى ، ذلك البوج جارجال . انه شاب مجنون ، كان يريد ان يكون كريما وشريفا . الا تعرفه يا ريجو ؟ ارجو الا تعرفه ابدا اذن فقد اسره البيض وسوف يخلصونني منه كما خلصوني من بوكمان .

اجاب ريجو : بخصوص بوكمان ، هؤلاء هم سود جمايكا الذين يمرون الآن ، وارى في صفوفهم ذلك الزنجي الذي اوفده اليك جان فرانسوا لكي ينبئك بموت بوكمان . الا تعرف ان هذا الرجل يمكن ان يكذب تنبؤات الساحر بخصوص نهاية هذا الزعيم اذا قال انهم القوا القبض عليه في المقدمة قبل الاشتباك بنصف ساعة وانه اسر الى بهذا النبأ قبل ان استدعيه اليك .

قال بياسو : يا للشيطان ! انت على حق يا عزيزي . يجب ان نطبق فم هذا الرجل . مهلا .

ثم رفع صوته وصاح : ماكايا !

خرج زعيم السود الماكايكا وقدم طبنجته دليلا على الاحترام

Looloo
www.dvd4arab.com

فخاطبه بياسو قائلا : اخرج من صفوفك ذلك الجندى الذى اراه هناك والذى لا ينبغى ان يكون بينهم .

وكان الجندى الذى يشير اليه هو رسول جان فرانسوا . واحضره ماكايا الى القائد الاعلى . وتظاهر هذا الاخير بالغضب الشديد وقال يسأل الزنجى المشدوه : من انت ؟

ـ انا رجل اسود ايها القائد .

ـ ويحك . اننى ارى انك اسود . ولكن ما اسمك ؟

ـ اسمى الحربى قاتلان واسمى الحقيقى ساباس .

قال بياسو : كيف تجرؤ على حضور الاستعراض بين البنادق اللامعة والسيوف البراقة بسيفك الذى لا غمد له وسروالك الممزق وقدميك الملوثتين بالوحل ؟

اجاب الاسود : ليس الذنب ذنبى ايها الجنرال ، فقد كلفنى الاميرال العظيم جان فرانسوا ان أحمل اليك نبأ موت الزعيم بوكمان . واذا كانت ثيابى قد تمزقت ، واذا كانت قدماى قد تلوثتا فذلك لاننى عدوت حتى كادت انفاسى تضيع لكى آتيك بهذا النبأ فى اسرع وقت . ولكنهم احتجزونى فى المعسكر و ...

قاطعه بياسو وقد قطب حاجبيه : اننى لا اقصد هذا ايها الاحمق ، وانما اعنى جرأتك على حضور الاحتفال بهذه الصورة ، فاتل الصلاة على روحك ثم اطلق النار على نفسك .

هنا ايضا تأكدت من نفوذ بياسو الاخلاقى على المتمردين فان المسكين وقد تلقى الامر بان يقتل نفسه لم ينطق بكلمة ، وانما اطرق براسه الى الارض وعقد ذراعيه على صدره ثم حيا قاضيه الذى لا يرحم ثلاث مرات . وبعد ان احنى راسه للساحر الذى باركه خرج من المغارة . وبعد بضع دقائق دوى طلق نارى عرف منه بياسو ان الزنجى اطاعه وانتحر .

وهكذا تخلص الزعيم من كل ما يدعو الى قلقه وخوفه ، وتحول عندئذ الى ريجو وفى عينيه وميض من السرور وعلى شفتيه ابتسامة عريضة كانه يريد ان يقول : ارايت ؟ .. ما رايك الآن ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

واستمر الاستعراض . وهذا الجيش الذى قدم لى صورة غريبة من الفوضى قبل ذلك بساعات لم يكن اقل غرابة وهو يحمل السلاح ، فكنت ارى تارة زنوجا عراة مسلحين بالهراوات والفئوس والنبابيت يمشون على صوت قرون الكباش كالمتوحشين ، وتارة اخرى ارى فرقا من الخلاسيين المسلحين على الطريقة الاسبانية او الانجليزية يمشون بنظام حاملين اسلحتهم ويوفقون خطواتهم على صوت الطبول ثم جماعات من الزنجيات والصبية مسلحين بالمعاول والاسياخ ، وشيوخ تقدم بهم السن واحدودبت ظهورهم لا يقوون على حمل بنادقهم ، ثم سحرة بوجوه مكشرة متقلصة يرفعون عقيرتهم بأغان غير واضحة تصاحبهم نغمات الجيتار والطنطن والمزمار . وكانت تقطع هذه الجموع الغريبة من وقت لآخر عصابات من البدو السود وهم يرفعون رءوسهم فى كبرياء ، يحملون فى ايديهم بنادق لامعة ويجرون خلفهم عربات محملة بالمؤن المسروقة او بمدافع استولوا عليها من البيض ويستخدمونها كغنيمة اكثر منها كسلاح ويغنون اغان حربية بصوت مرتفع . وفوق كل الرءوس ترفرف اعلام من كل لون ومن كل الشعارات ، بيضاء وحمراء وثلاثية الالوان تحمل عبارات مختلفة منها : الموت للكهنة والارستقراطيين .. حرية ومساواة .. يعيش الملك .. لتسقط الحكومة وتحيا اسبانيا .. الموت للطغاة .. الى ذلك .. فوضى غريبة تدل على أن كل جنود المتمردين ليسوا الا جماعة من المتوسطين لا غرض لهم ولا هدف وان الفوضى لا تكمن فى صفوف الرجال فقط وانما فى آرائهم وافكارهم .

وكانت كل جماعة منهم ، اذا ما مرت بباب المغارة تخفض علمها ، وكان بياسو يرد على كل تحية ويوجه لكل جماعة اما اطراء واما تعنيفا حسب الظروف ، وكانت كل كلمة من بين شفتيه ، سواء كانت مناسبة او متملقة تقابل باحترام عميق وخوف شديد .

Looloo
www.dvd4arab.com

وانتهت جموع البرابرة والممجيين اخيرا ، واعترف ان منظرهم الذى اطربنى فى البداية كان ثقيلا على نفسى فى النهاية .

هذا وخيوط النهار تولى مدبرة ، وما كادت الصفوف الاخيرة تمر حتى كانت الشمس قد اصبحت قرصا نحاسيا احمر ، تلقى بآخر اشعتها على صخور الجبال .

— ٣٨ —

بدا بياسو وقد غرق فى الاحلام . وعندما انتهى العرض ، وبعد ان اصدر اوامره الاخيرة ، وعادت الجموع الى اكواخها وجه الى الحديث فقال :

— ايها الشاب . لا ريب انك استطعت ان ترى بنفسك مدى عبقريتى ومقدرتى . وقد حانت الساعة الآن لكى تمضى وتطلع ليجورى بكل ذلك .

قلت فى هدوء : اذا كنت قد بقيت على قيد الحياة حتى الآن فلم يكن ذلك بيدى .

قال : صدقت .

وامسك لحظة كما لو ليرى التاثير الذى ستحدثه بى كلماته التى يوشك ان ينطق بها ثم اردف : ولكن بيدك ان تبقى على قيد الحياة .

صحت مشدوها : وكيف هذا ؟ .. ماذا تعنى ؟

استطرد بياسو يقول : نعم . ان حياتك رهن بك انت وفى مقدورك ان تنقذها اذا اردت .

كان هذا اول عمل من اعمال الرافة ولعله الاخير الذى يصدر من بياسو ، وقد بدا لى كما لو كان عملا خارقا . وذهل الساحر مثلى فوثب من مقعده حيث كان قد بقى مكانه كل هذه المدة ، مستغرقا فى التامل والتفكير كما يفعل دراويش الهنود . ووقف امام القائد ورفع صوته قائلا فى غضب :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ ماذا يقول القائد العام الكريم ؟ .. هل نسى ما وعدنى به ؟ .. ما من احد يستطيع التصرف فى حياة هذا الاسير : فهى ملكى انا .

نهض بياسو واقفا دون ان يبدو عليه اى تاثر وكلمه لحظة فى صوت خافت واراه العلم الاسود الذى سبق ان لحظته ، وبعد بضع كلمات متبادلة هز الساحر راسه علامة على الموافقة ثم عاد كل منهما الى مكانه ، وخاطبنى القائد قائلا وهو يخرج من جيبه رسالة جان فرانسوا الثانية التى كان قد دسها فيه :

ـ اصغ الى . ان موقفنا ليس على ما يرام . وقد لقى بوكمان حتفه فى معـــــركة ، واباد البيض الفى زنجى من المتمردين . والمستعمرون مستمرون فى تعزيز ثكناتهم واقامة المراكز العسكرية فى السهول . وقد اضعنا بغلطتنا فرصة الاستيلاء على مدينة الكاب . ولن تحين هذه الفرصة ثانية قريبا ، ومن ناحية الشرق يخترق النهر الطريق العمومى ، ولكى يمنعنا البيض من عبوره اقاموا مدفعية ضخمة فوق جسور عائمة ، وفى ناحية الجنوب طريق عام يخترق هذا البلد الجبلى يدعى « اعالى الكاب » وقد حصنوه بمدفعية شديدة هو الآخر ، وحصنوا الموقع من ناحية الارض بسياج من اعواد قصب السكر ، اقامه الاهالى وزودوه بمتاريس شائكة . ومدينة الكاب ، بهذه الطريقة ، فى حمى من جيوشنا . والكمين الذى نصبناه فى عنق دوميت مولاتر فقد تاثيره . اضف الى كل هذه الهزائم التى منينا بها الحمى التى تفشت فى معسكر جان فرانسوا . ونتيجة لهذا كله فان امبراطور فرنسا العظيم يرى ، ونحن معه ، ان من الاوفق ان نفاوض المحافظ بلانشلاند والجمعية الاستعمارية ، وها هى الرسالة التى نوجهها الى الجمعية فى هذا الصدد ، فاسمع :

« السادة النواب ،

« لقد حلت المصائب والكوارث بهذه المستعمرة الغنية المهمة والمت بنا ولم يعد لدينا ما نبرر به اعمالنا . ولكن قد ياتى يوم تعترفون

Looloo
www.dvd4arab.com

فيه باحقية موقفنا . يجب ان يشملنا العفو العام الذى اعلنه الملك لويس السادس عشر للجميع دون استثناء .

« والا ، وبما ان ملك اسبانيا ملك كريم ويعاملنا معاملة طيبة ويحسن وفادتنا فسوف نستمر فى خدمته بكل حمية واخلاص .

« ونحن نرى ان الملك منحكم ومنح الجمعية بقانون ٢٨ سبتمبر حق الحكم على موقف الاشخاص غير الاحرار والحالة السياسية للرجال الملونين . وسندافع عن قرارات الجمعية الوطنية وقراراتكم المستوفاة بكافة الاجراءات المطلوبة حتى آخر قطرة من دمائنا . ومن المهم ان تعلنوا بقرار مصدق عليه من الجنرال بأن فى نيتكم الاهتمام بمصير العبيد ، وسوف يرضى العبيد بذلك اذا ما عرفوا انكم مهتمون بهم وذلك عن طريق زعمائهم بأن ترسلوا اليهم هذا القرار وبذلك تستتب الامور فى وقت قصير .

« ولكن لا تظنوا ايها السادة النواب اننا نرضى بالتسليح نزولا على ارادة الجمعيات الثورية ، فنحن رعايا ثلاثة ملوك ، ملك الكونجو الذى ولد سيدا لكل العبيد وملك فرنسا الذى ينوب عن آبائنا وملك اسبانيا الذى ينوب عن امهاتنا .. هؤلاء الملوك الثلاثة هم سلالة حكماء المجوس الثلاثة الذى هداهم نجم فى السماء ، مشيرا لميلاد المسيح . واذا نحن خدمنا الجمعيات فقد نضطر الى محاربة اخواننا، رعايا هؤلاء الملوك الثلاثة الذين اقمنا لهم يمين الولاء .

« ثم اننا لا ندرى ما المراد بارادة الامة ما دمنا ، منذ ان خلق العالم لا نعرف شيئا غير ارادة الملك . ان امير فرنسا يحبنا وامير اسبانيا لا يقطع عنا مساعداته وامداداته . ونحن نساعدهما وهما يمدان الينا يد المساعدة فتلك هى قضية الانسانية . واذا حدث وافتقدنا هؤلاء الملوك فسوف ننصب علينا ملكا على الفور .

« تلك هى نوايانا التى نرضى بعقد السلام مقابلها .

التوقيعات : جان فرانسوا ، بياسو ،
وسبريز ، مانزو ، توسان واوبير
ومفوضون عن جميع الزنوج »

Looloo
www.dvd4arab.com

واردف بياسو يقول بعد ان فرغ من قراءة هذه الوثيقة التى انطبعت كلماتها فى ذهنى كلمة كلمة :

– هانت ترى اننا قوم محبون للسلام . واليك ما اطلبه منك . انا لم نتعلم ، لا انا ولا جان فرانسوا فى مدارس البيض حيث يدرسون اللغة الفصحى . اننا نحسن القتال ولكننا لا نحسن الكتابة . ومع ذلك فنحن لا نريد ان تضم رسالتنا التى ترسلها الى الجمعية اخطاء نحوية تثير السخرية . ويبدو انك درست هذا العلم الذى نفتقر اليه فصحح الاخطاء التى يمكن ان تكون فيها والتى يمكن ان تثير سخرية البيض واننى امنحك حريتك مقابل ذلك .

كانت تلك الرسالة تحتوى على اخطاء نحوية وسياسية ابت على كبريائى ان اقوم بتصحيحها ، ولم اتردد لحظة واحدة ، ومهما يكن فما فائدة الحياة ، ورفضت عرضه .

وبدا مشدوها وصاح : كيف هذا ! .. اتؤثر الموت على ان تصحح بضع كلمات ؟

اجبت : نعم .

– اسمعنى جيدا ايها الشاب المجنون . اننى اقل منك عنادا وامهلك حتى الغد لكى تستقر نيتك على اطاعتى .. غدا ، عند مغيب الشمس سيعودون بك الى ، فاحرص على ارضائى . وداعا . ان الليل غير ناصح . فكر جيدا فان الموت عندنا ليس مجرد موت .

وصاحب كلماته الاخيرة بضحكة مقيتة ادركت منها المعنى الذى ينطوى عليها والتعذيب الذى اعتاد بياسو ان ينزله بضحاياه .

واستطرد بياسو يقول : كاندى ، خذ السجين ودعه فى حراسة رجال المورن روج . أريد أن يعيش يوما آخر ، وقد لا يصبر جنودى حتى ينتهى هذا اليوم .

وكان كاندى رئيس حراسة فاوثق يدى خلف ظهرى وامسك الجنود بطرف الحبل وخرجنا من المغارة .

Looloo
www.dvd4arab.com

حين سلمنى حراس بياسو الى زنوج مورن دوج خيل لى ان اشباحا تسلمنى الى اشباح ، وتركتهم يربطوننى من وسطى الى جذع شجرة دون ان ابدى اية مقاومة . وجاءونى ببعض البطاطا المسلوقة فاكلتها بتلك الغريزة الالهية التى يمنحها الله الكريم للانسان وسط مشاغل الذهن ، وكان الليل قد اقبل فانسحب حراسى الى اكواخهم وبقى منهم ستة فقط ، بين جلوس ونيام ، امام نار كبيرة اشعلوها اتقاء لبرد الليل ، ولم تمض بضع لحظات حتى غرقوا جميعا فى نوم عميق .

ولم يساهم الارهاق الجسمانى الذى عانيته فى تبديد الاحلام الغامضة التى شردت فيها افكارى ، فقد تذكرت الايام الجميلة التى قضيتها بجوار مارى قبل ذلك باسابيع قليلة دون ان استشف فى المستقبل اى احتمال غير احتمال سعادة ابدية . وقارنت بين تلك الايام واليوم الذى انقضى حيث وقعت امامى اشياء غريبة كما لو كنت اشك فى وقوعها ، ذلك اليوم الذى واجهت فيه الموت ثلاث مرات ، وفكرت فى مستقبلى الذى لم يعد يزيد عن يوم واحد ، وهو يوم الغد والذى لم يكن يدخر لى غير موت مؤكد . وخيل لى انى اناضل كابوسا مريعا ، وتساءلت اذا كان كل ما حدث قد حدث حقا واذا كنت موجودا حقا فى معسكر بياسو الدامى ، واذا كانت مارى قد ضاعت منى الى الابد ، واذا كان هذا السجين الذى يقوم على حراسته ستة من البرابرة والذى ينتظر الموت الزؤام هو انا حقا . ورغم ما بذلت من جهد للهرب من هذه الفكرة الملحة المزقة فان قلبى كان يعود الى مارى ، وكنت اتساءل فى قلق عن مصيرها واحاول التخلص من قيودى لكى اسرع الى نجدتها معتسما نفسى ان الحلم الفظيع لا يلبث ان ينقشع وان الله لا يرضى للشرور والرزايا . ان تدخل حياة الملاك الذى منحنى اياه زوجة ، وهذا الترابط المؤلم لافكارى كان يعيد عندئذ الى ذهنى بيرو فيعمينى الغضب ويخيل الى ان شرايين جبينى

Looloo
www.dvd4arab.com

ستتمزق . وكرهت نفسي ولعنتها واحتقرتها لانني ربطت لحظة صداقتي لبيبرو بحب مارى . ودون أن احاول معرفة السبب الذى القى به فى مياه النهر الكبير رحت ابكى لانني لم اقتله ، فهو قد مات ، وانا اوشك على الموت ، والشيء الوحيد الذى رحت اتحسر عليه هو انتقامى .

عصفت بى كل هذه الانفعالات وانا بين اليقظة والمنام ، وسط الارهاق والضنى اللذين غرقت فيهما . ولا ادرى كم من الوقت بقيت على هذه الحال ، ولكننى انتبهت فجأة على صوت رجل يغنى من بعيد اغنية واضحة كان يقول فيها « انما انا المهرب » ففتحت عينى وانا ارتجف . كان كل شيء حولى مظلما ، وكان الزنوج الذين يحرسوننى راقدين والنار تخبو ، ولم أعد اسمع شيئا . وحسبت انني كنت واهما وانطبق جفناى المثقلان ولكننى اسرعت ففتحتهما فى اللحظة التالية على صوت المغنى وهو يغنى اغنية اسبانية بينها هذه الكلمات « انما انا المهرب » .

لم اكن واهما هذه المرة . كان الصوت صوت بيبرو وبعد لحظة ارتفع الصوت من جديد وسمعته يردد الكلمات السابقة ، واقبل كلب وراح يتمسح عند قدمى فى مرح . كان راسك . ورفعت عينى . كان يقف امامى رجل اسود،وضوء النهار القى بجوار الكلب ظل سيده العملاق . كان الاسود هو بيبرو . وعدت افكر فى الانتقام ، ولكن الدهشة سمرتنى مكانى وعقدت لسانى . لم اكن نائما واذن فالموتى يبعثون . لم يكن هذا حلما وانما كان جسدا حيا امامى . وتحولت عنه فى ذعر ، وعندما راى ذلك تهاوت راسه فوق صدره وتمتم يقول فى صوت خافت :

ـ انك وعدتنى يا اخى الا يرقى الشك الى قلبك ابدا عندما تسمعنى اغنى هذه الاغنية ، فهل نسيت هذا الوعد يا اخى ؟

اعاد الغضب صوتى الى وصحت : ايها الوحش . هانذا اجدك اخيرا ايها الجلاد ، يا قاتل عمى ومختطف زوجتى . كيف تجرؤ وتدعونى اخاك . مكانك ولا تقترب منى .

Looloo
www.dvd4arab.com

نسيت انني موثق القياد وانني لا استطيع ابداء اية حركة فخفضت عيني حولي لكي ابحث عن سيفي . ولم يفته معنى نظرتي وبدا عليه التاثر وقال في انفعال وفي رفق :

ـ كلا ، كلا . لن اقترب انت تعيس وانني ارثي لك . وانت لا ترثي لي على الرغم من انني اتعس منك .

هززت كتفي . وادرك هذا العتاب الصامت ، ونظر الى نظرة حالمة ثم قال :

ـ نعم . انك خسرت كثيرا ، ولكن صدقني ان خسارتي اعظم من خسارتك بكثير .

وايقظ حديثنا حراسي الستة . واذ راوا رجلا غريبا امامي اسرعوا بالنهوض وهم يمسكون اسلحتهم ، ولكن ما ان وقع بصرهم على بيرو حتى اطلقوا صرخة تدل على الدهشة والسرور وخروا ساجدين امامه .

ولكن هذا الاحترام الذي ابداه الزنوج نحو بيرو ، واهتمام راسك وتمسحه بسيده وبي في نفس الوقت وهو ينظر الي في قلق بسبب برودي في استقباله ... لم يستطع كل هذا ان يخفف من غضبي الذي اصبح عاجزا بسبب القيود التي تحول بيني وبين اظهاره .

واخيرا صحت وانا ابكي قهرا تحت القيود التي تشل حركتي : اوه .. اوه .. ما اشقاني !

وكنت قد ندمت لان هذا الشرير قد اوقع بنفسه مواقع الردى وحسبته مات وتحسرت على انتقامي ، ولكن ها هو الآن ياتي لكي يبدي لي احتقاره ، وها هو حي يرزق امام عيني ، واستطيع ان امتع نفسي بتمزيقه اربا .. اوه .. من يفك قيودي هذه !

تحول بيرو نحو الزنوج ، وكانوا لا يزالون يقفون امامه في خشوع ، وقال :

ـ ايها الرفاق ... فكوا قيود الاسير .

Looloo
www.dvd4arab.com

اطاعه الزنوج على الفور وقطعوا الحبال التى تربطنى الى الشجرة. ونهضت وقد اصبحت حرا اخيرا ، ولكننى بقيت جامدا مكانى وقد الجمتنى الدهشة .

وقال بيبرو : ليس هذا كل شىء .

وانتزع خنجرا من احد الجنود وقدمه الى وهو يقول :

ـ يمكنك الآن ان تشفى غليلك .. يعلم الله اننى لا اجادلك فى حق التصرف فى حياتى . انك انقذتها ثلاث مرات ، وهو الآن لك ، فاضرب اذا شئت .

لم يكن فى صوته عتاب او مرارة ، وانما كان فيه حزن واستسلام .

هذه الطريقة التى فتحت لانتقامى والتى فتحها ذلك الذى اريد النيل منه بالذات كانت كثيرة الغرابة وكثيرة السهولة ، واحسست بان كراهيتى لبيبرو وكل حبى لمارى لا يكفيان لحملى على ارتكاب جريمة قتل ، وعلى كل حال ، ومهما تكن الظواهر فان صوتا كان يصرخ فى اعماقى ان عدوا او مذنبا لا يمكن ان يعرض نفسه للانتقام والقصاص . او اقول لكم اخيرا ؟ كان فى العظمة الكبيرة والمهابة اللتين تحوطان هذا الرجل الغريب العجيب شيئا ملك على كل حواسى فى تلك اللحظة رغما عنى . فابعدت الخنجر وانا اقول له :

ـ اننى اريد ان اقتلك طبعا ايها الشقى ولكن فى معركة ... لا اريد ان اقتلك غيلة ، فدافع عن نفسك .

سألنى مشدوها : ادافع عن نفسى ؟ وممن ؟

ـ منى انا .

اتى بحركة تدل على الدهشة وقال : منك انت ؟ .. هذا هو الشىء الوحيد الذى لا استطيع ان اطيعك فيه . هل ترى راسك ؟ اننى استطيع ان اذبحه ، ولن يمنعنى من ذلك ، ولكننى لن استطيع ارغامه على ان يدافع عن نفسه منى ، فهو لن يفهمنى عندئذ . وانا لا افهمك ، فانا راسك بالنسبة لك .

Looloo
www.dvd4arab.com

واردف يقول بعد صمت : انني ارى الكراهية فى عينيك كما امكنك ان تراها فى عينى ذات يوم . اعرف انك ابتليت بمصائب كثيرة فقد ذبح عمك واحرقت مزارعك وقتل اصدقاؤك ، ونهبت بيوتك ولكن ليس لى يد فى ذلك وانما هم ابناء عشيرتى . اسمع . انني قلت لك ذات يوم ان اصحابك اساءوا الى فقلت لى انه ليس لك يد فى ذلك ؛ فماذا فعلت عندئذ ؟

وانبسطت اساريره وتوقع ان يرانى ارتمى بين ذراعيه . ولكننى نظرت اليه نظرة شذراء وقلت له فى غلظة :

ـ انك تستنكر ما فعلته عشيرتك بى وتنسى ما فعلته انت .

سالنى : وماذا فعلت ؟

اقتربت منه فى شراسة ودوى صوتى كالرعد : اين ماري ؟ .. ماذا فعلت بماري ؟

عند هذا الاسم مرت سحابة على جبينه وبدا عليه الارتباك لحظة واخيرا قطع حبل الصمت قائلا : ماريا ؟ .. نعم . انك على حق .. ولكن آذاننا كثيرة تسمعنا .

اشعل ارتباكه وعبارته « انت على حق » جحيما فى قلبى . وظننت انه يتهرب من سؤالى ، وفى هذه اللحظة نظر الى بوجه منبسط وقال لى فى تاثر كبير .

ـ اتوسل اليك الا تشك فى . ساقول لك كل شيء فى مكان آخر . احبنى كما احبك وثق بى .

وامسك لحظة لكى يرى تاثير كلماته واردف يقول فى رفق : هل استطيع ان ادعوك اخى ؟

ولكن غضبى الفيور كان قد استعاد حدته ، وكلماته الرقيقة بدت لى مخادعة وزادت من عنف حدتى فصحت :

ـ اتجرؤ وتذكرنى بهذا الوقت يا ناكر الجميل ؟

فاطمتنى يقول وقد اغرورقت عيناه بالدموع : انت انا ناكر الجميل .

Looloo
www.dvd4arab.com

عدت اقول فى حدة : تكلم اذن .. ماذا فعلت بمارى ؟

اجاب : فى مكان غير هذا .. فهنا آذان اخرى تسمع ما تقول . ثم انك لن تصدقنى والوقت يمر . ها هو النهار يطلع ويجب ان انقذك من هنا . اسمع . كل شىء انتهى ما دمت تشك فى ويمكنك ان تقتلنى بهذا الخنجر ، ولكن انتظر قليلا قبل ان تقدم على ما تقول انه انتقام . يجب ان انقذك اولا . تعال معى لتلقى بياسو .

طريقته هذه فى التحدث والتصرف كانت تخفى سرا لم استطع ان افهمـــه . ورغم كل ظنونى به كان صوته يحرك حبلا فى قلبى ، ولا ادرى اية قوة كانت تسيطر على ، ورايت نفسى اتردد بين الانتقام والرثاء وبين الحذر والثقة العمياء . وتبعته .

— ٤١ —

خرجنا من المعسكر الذى يقيم فيه بوج جارجال . ودهشت وانا ارى اننى امشى طليقا فى ذلك المعسكر الهمجى حيث كان كل زنجى منهم يتعطش لدمى . وبدلا من ان يتعرض الزنوج لنا كانوا ينحنون امامنا بكل احترام وسرور . ولم اكن ادرى منزلة بيرو فى جيش الثوار ولكننى تذكرت سلطته القديمة التى كان يمارسها على زملائه فى العبودية ، وادركت دون مشقة الاهمية التى يبدو انه يحظى بها بين زملائه المتمردين .

واذ يلقنا خط الحراس القائمين على حراسة مغارة بياسو اقبل الينا زعيمهم الخلاسى كاندى وهو يســـالنا من بعيد مهددا ومتوعدا كيف نجرؤ على الاقتراب من الجنرال بهذه الصـــورة ، ولكن عنـدما سمحت له المسافة بان يتبين ملامح بيرو رفع قبضته الموشاة بالذهب فجاة ، وكما لو انه ريع من جرائه هو بالذات انحنى حتى كادت جبهته تلمس الارض وادخلنا بجوار بياسو وهو يتمتم بعبارات لم يرد بيرو عليها الا بحركة غامضة .

www.dvd4arab.com

لم يدهشني الاحترام الذي يبديه السود نحو بيرو ولكنني حين رايت كاندي ، وهو احد ضباطهم الرئيسيين يبدي كل هذا الخشوع امام عبد عمي رحت اتساءل من يكون هذا الرجل الذي يبدو ان سلطانه عظيم هكذا . وكان الامر شيئا آخر عندما دخلنا على القائد العام ، وكان جالسا وحده ياكل بعض الفاكهة في هدوء ، فما ان راى بيرو حتى نهض مسرعا محاولا اخفاء دهشته وارتباكه وخيبة امل كبيرة تحت مظاهر احترام عميق ، وانحنى في خشوع امام رفيقي وقدم له عرشه . ولكن بيرو رفض قائلا :

ـ لم آت يا جان بياسو لكي آخذ مكانك ، انما اتيت لكي اطلب منك صنيعا فحسب .

اجابه بياسو وهو يضاعف من تحياته واحتراماته : انت تعرف يا صاحب السمو انك تستطيع التصرف في كل ما يملكه جان بياسو، بل بجان بياسو نفسه .

واذ سمعته يدعو بيرو بصاحب السمو ، وهو لقب رفيع ، زادت دهشتي . واجابه بيرو على الفور :

ـ لست اطلب منك شيئا من ذلك .. لا اطلب منك الا حياة وحرية هذا الرجل .

واشار بيده الى . وذهل بياسو ولكن تردده لم يطل لانه اسرع يقول :

ـ انني شديد الحيرة يا صاحب السمو ، فانت تطلب مني اكثر مما استطيع ان امنحه اياك ، وهذا امر مؤسف جدا . ان هذا الاسير ليس ملكا لجان بياسو ، ولا شان لبياسو به .

ساله بيرو في حدة : ماذا تعني ؟ .. شأن من اذن ؟ .. أتوجد هنا سلطة غير سلطتك ؟

ـ نعم يا صاحب السمو ، للاسف .

ـ سلطة من اذن ؟

ـ سلطة جيشي .

Looloo
www.dvd4arab.com

كانت الرقة والدهاء الذى يتهرب بياسو بهمـــا من اسئلة بيرو الواضحة المترفعة تدل على انه لا يريد ان يمنح الاخر اكثر من الاحترامات التى يبدو انه مضطر اليها ، وصاح بيرو يقول :

ـ كيف ؟ .. جيشك ؟ .. او لست انت قائده .

واحتفظ بياسو بميزته دون ان يتخلى مع ذلك عن تواضعه وخشوعه واجاب يقول متظاهرا بالاخلاص :

ـ هل تظن يا صاحب السمو اننا نستطيع حقـا قيـادة رجال لا يثورون الا لـكى لا يطيعون ؟

لم اكن اعبأ كثيرا بالحياة لـكى اقطع هذا الصمت ، ولكن ما رايته بالامس من سلطان بياسو غير المحدود على جنوده كان يمـكننى ان يحملنى على تكذيبه واظهار ريائه غير ان بيرو خاطبه قائلا :

ـ اذا كنت لا تعرف كيف تقود جيشك واذا كان جنـــودك هم رؤساؤك فما هى الاسباب التى يمكن ان تدعوهم لكراهية هـذا السجين ؟

قال بياسو وهو يخفى قسوته وتهكمه تحت ستار من الحزن : ان بوكمان لقى حتفه على أيدى رجال الحكومة . وقد عزم رجالى على الانتقام له من هذا الابيض ويريدون ان يعلقوا راسه كما علقوا هم راس بوكمان .

قال بيرو : وكيف توافق على مثل هذا العمل الفظيع ؟ اصغ الى ياجان بياسو . ان هذه الفظائع هى التى ستتسبب فى ان تخسر قضيتنا . كنت اسيرا فى معسكر البيض ، وقد تمكنت من الفرار ولم اكن اعرف ان بوكمان قتل كما تقول انت . هذا قصاص عادل من السماء لما جنته يداه من جرائم . ساطلعك على نبأ آخر . ان جانو ، زعيم الزنوج الذى قاد البيض الى كمين فى دوميت مولاتر قد مات هو الآخر ، وانت تعرف ان جانو هذا كان لا يقل قسوة وفظاعة عن بوكمان . حسنا ... اسمعنى جيدا . ان جانو هذا لم تنقض عليه صاعقة من السماء ولم يقتله البيض ، وانما جان فرانسوا نفسه هو الذى اوقع به هذا القصاص العادل .

Looloo
www.dvd4arab.com

وكان بياسو يصغى فى احترام كئيب فاطلق صيحة دهشة . وفى هذه اللحظة دخل ريجو وحيا بيرو فى احترام كبير ثم همس فى اذن بياسو ببضع كلمات . وارتفع فى الخارج صخب كبير ، فى حين استطرد بيرو :

ـ نعم . ان جان فرانسوا الذى لا عيب فيه الا حبه للترف والبذخ والظهور فى تلك العربة الفخمة ذات الجياد الستة المطهمة التى تنقله كل يوم من معسكره الى الكنيسة للصلاة .. جان فرانسوا هذا عاقب جانو لما اتاه من فظائع واعدمه رميا بالرصاص امس على الرغم من توسلاته ، عند نفس الشجرة التى كان يعلق عليها ضحاياه وهم احياء ، ففكر فى هذا المثل يا بياسو .. لم هذه المذابح التى تضطر البيض الى القسوة ؟ ان بين جنودنا دجالاً خلاسيا يدعى رومين ، ويدعى النبوة ويحرض السود ويقنعهم بأن مارى العذراء تتصل به ويدفع زملاءه الى القتل والسلب باسمها .

وقد نطق بيرو باسم مارى فى شىء من الرقة والاحترام ، ولا ادرى كيف تم هذا ، ولكننى احسست عندئذ بالمهانة والاستياء .

واستطرد بيرو يقول : حسنا . وان لديك فى معسكرك رجالا من هذا النوع ، وانا اعلم انه لابد لك وانت تقود جيشا كبيرا مكونا من رجال من جميع البلاد ومن كل الاجناس ، لابد لك من رابطة بينك وبينهم ، ولكن الا يمكن ان تجد هذه الرابطة فى رجل بعيد عن التعصب والقسوة والشعوذة ؟ صدقنى يا بياسو ، ان البيض اقل منا ، فقد رايت كثيرا من المزارعين يدافعون عن حياة عبيدهم ، وانا لا اجهل ان هناك من يفضل الذود عن ماله قبل ان يذود عن عبيده ، ولكنهم ينظرون الى مصلحتهم على الاقل . ومصلحتنا هى الا تكون اقل رحمة منهم . اتكون قضيتنا اشد قدسية واكثر عدلا اذا نحن ابدنا النساء وذبحنا الاطفال وعلقنا الشيوخ وحرقنا المستعمرين فى ديارهم ؟ ومع ذلك فهذا ما نقوم به كل يوم . اجبنى يا بياسو ، هل يجب ان يكون الاثر الذى نتركه خلفنا اثر دماء او حريق دائما ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

وسكت ، وقد اكسبته ومضة عينيه ورنة صوته قوة اقناع وسلطة لا يمكن التغلب عليها ، واطرق بياسو وبدا كثعلب امام اسد يحاول ان يهتدى الى حيلة يستطيع ان يفلت بها من كل هذه القوة . وفيما هو يفكر بدا ريجو ، زعيم المكايا الذى راى الكثير من الفظائع ترتكب أمام عينيه انه يستنكر الاهوال التى رسم بيرو صورة لها وقال وهو يتظاهر بالاستياء :

ـ يا الهى .. ويا للفظائع التى يرتكبها شعب غاضب !

ـ ٤٢ ـ

هذا والصخب فى الخارج يتزايد ويبدو انه يثير بياسو . وقد علمت فيما بعد ان هذا الصخب كان مصدره رجال مورن روج الذين كانوا يطوفون بالمعسكر ويعلنون تبا عودة منقذى ويبدون رغبتهم فى مساعدته مهما يكن السبب الذى دفعه الى اللجوء الى بياسو . وقد اقبل ريجو ليخبر القائد العام بذلك ، وخوف بياسو من حدوث انشقاق وخيم العاقبة هو الذى دفعه الى ذلك التنازل الذى ابداه ازاء رغبة بيرو ، فقد قال له فى خيبة امل ظاهرة :

ـ اذا كنا قساة نحو البيض فانت قاس نحونا ، وتخطىء اذ تتهمنى بعنف التيار ، فهو يجذبنى رغما عنى . ولكن ماذا يمكننى ان افعل لارضائك .

اجاب بيرو : لقد قلت لك ذلك .. دع الاسير يمضى معى .

فكر بياسو لحظة ثم صاح وهو يضفى على وجهه اقصى ما يمكنه من سمات الصراحة :

ـ حسنا يا صاحب السمو . اريد ان ابرهن لك عن رغبتى فى ارضائك . ولكن اسمح لى بكلمتين اقولهما للاسير على حدة . وله مطلق الحرية فى ان يمضى معك بعد ذلك .

اجاب بيرو : اذا كان الامر كذلك فلك ما تريد .

looloo
www.dvd4arab.com

واخذنى بياسو فى ركن من المغارة وقال لى فى صوت خافت : لا استطيع ان امنحك الحياة الا بشرط واحد انت تعرفه ، فهل تقبل ؟

وارانى رسالة جان فرانسوا ، ورايت فى الموافقة خسة وجبنا فقلت : كلا .

قال مزمجرا : آه . ما زلت على عنـــــادك ؟ اتعتمد اذن على تصيرك ؟ .. هل تعرف من هو ؟

اجبته فى حدة : نعم . انه وحش مثلك ، ولكنه اكثر منك خبثا ورياء .

اعتدل فى وقفته وبدا عليه الذهول ، وحاول ان يرى فى عينى اذا كنت مجدا فى قولى ، وقال :

ـ ماذا ؟ .. اذن فانت لا تعرفه .

اجبت فى احتقار : لا اعرف فيه الا عبدا لعمى يدعى بيبرو .

زمجر بياسو للمرة الثانية وقال : ها .. ها .. هذا غريب . انه يريد ان يرد لك حياتك وحريتك وانت تدعوه « وحشا » مثلى .

قلت : وماذا يهمنى ؟ لو نلت حريتى لحظة واحدة فلن يكون ذلك لكى اساله العفو عنى وانما لكى اسلبه حياته .

قال بياسو : ما هذا الذى تقول ؟ يبدو انك مجد فى قولك وانك لست هازلا . ان فى هذه المسألة شيئا لا افهمه . ان هذا الرجل يبسط حمايته عليك ولكنك تكرهه . وهو يطلب العفو عنك فى حين انك تريد له الموت . ولكن هذا سيان عنـدى . انك تريد ان تنال حريتك لحظة ، وهذا هو الشىء الوحيد الذى يمكننى ان امنحك اياه . سادعك تمضى معه ، ولكن اقسم لى بشرفك ان تعود وتسلم نفسك قبل مغيب الشمس .. انت رجل فرنسى .

ماذا اقول لكم ايها السادة ؟ .. كانت الحياة ثقيلة على ، ثم انى كرهت ان يكون لبيبرو الفضل فى الابقاء على ، والظواهر كلها تحملنى على كراهيته . لا ادرى هل دخل فى حسابى ان بياسو لن يتخلى

Looloo
www.dvd4arab.com

عن فريسته بسهولة وانه لن يطلق سراحى ابدا لهذه السبب ؟ لم اكن اريد فى الواقع الا بضع ساعات من الحرية لكى أعرف قبل ان اموت مصير حبيبتى مارى ، والقسم الذى يطلبه منى بياسو ووثوقه فى الشرف الفرنسى كان وسيلة اكيدة وسهلة للحصول على يوم آخر . ولهذا اقسمت .

وبعد ان قيدنى الزعيم بهذه الصورة عاد الى بيرو وقال فى خشوع :

ـ الاسير الابيض تحت تصرفك يا صاحب السمو ، ويمكنك ان تصطحبه فله مطلق الحرية فى ان يتبعك .

ولم ار ابدا مثل هذه السعادة فى عينى بيرو . وصاح يقول وهو يبسط له يده :

ـ شكرا يابياسو . انك اسديتنى صنيعا جليلا ويحق لك ان تطلب منى ما تشاء فى اى وقت ، ولك ان تفعل ما تريد باخوانى المورن روج الى ان اعود .

وتحول الى وقال : اما وقد اصبحت حرا فتعال معى .

وجرنى بقوة عجيبة ، ونظر بياسو الينا ونحن نخرج فى شىء من الدهشة تغلبت على مظاهر الاحترام التى شيع بها بيرو .

ـ ٤٣ ـ

كنت متلهفا لكى انفرد ببيرو ، فان ارتباطه حين سالته عن مصير مارى والرقة الوقحة التى جرؤ بها على النطق باسمها اهاجا غيرتى ، تلك الغيرة التى ضاعفت من قسوة قلبى عليه منذ ان اختطف مارى اثناء الحريق .

فيم يهمنى بعد ذلك اللوم الشديد الذى وجهه لبياسو الدامى امامى ، وحرصه على حياتى ، وتلك الشهامة الغريبة التى تتسم بها كل كلماته وكل تصرفاته . وفيم يهمنى ذلك السر الذى يحيط به

www.dvd4arab.com

والذى يظهره على قيد الحياة بعد ان حسبت انني شهدت موته والذى عرفت انه وقع اسيرا فى ايدى البيض بعد ان رايته يغوص فى مياه النهر الكبير والذى تغير من عبد الى صاحب سمو ومن اسير الى منقذ .. من كل هذه الامور الغامضة التى لا افهم منها اشياء كان الشيء الوحيد الواضح امامى هو اختطاف مارى الفظيع وهو اهانة لابد لى من ان انتقم لها ، وجريمة لابد لها من قصاص . وان ما حدث امام عينى من امور غريبة يكاد يكفى لكى ارجيء انتقامى ، وانتظرت فى فروغ صبر اللحظة التى استطيع ان ارغم فيها غريمى على تغيير موقفه ، وقد جاءت هذه اللحظة اخيرا .

وكنا قد مررنا بصفوف الجنود السود الذين خروا ساجدين امامنا وهم يقولون : يا للمعجزة ... انه لم يعد اسيرا .

ولا ادرى هل كانوا يتكلمون عنى او عن بيرو . وكنا قد اجتزنا آخر حدود المعسكر واختفى آخر حراس بياسو خلف الاشجار والصخور . وكان راسك يجرى امامنا مرحا طروبا ثم يعود الينا ، وكان بيرو يمشى مسرعا فاوقفته فجاة وقلت له :

ـ اسمع . لا فائدة من المضى معك الى ابعد من هذا فان الاذان التى كنت تخشاها لم تعد تستطيع ان تستمع الينا . تكلم . ماذا فعلت بمارى ؟

وكان صوتى يتهدج من الانفعال والغضب ، ولكنه نظر الى فى رفق وقال : دائما !

صحت محنقا : نعم ، دائما .. دائما .. لن اكف عن القاء هذا السؤال حتى آخر رمق لى وحتى آخر رمق لك . اين مارى ؟

ـ اما من شيء يمكن ان يزيل عنك شكوكك فيما يتعلق باخلاصى لك ؟ سوف تعرف ذلك قريبا .

قلت : بل والآن حالا ايها الوحش . اريد ان اعرف ذلك الآن . اين مارى ؟ هل تسمع ؟ اين مارى ؟ اجب والا فالموت بيننا ... دافع عن نفسك .

Looloo
www.dvd4arab.com

اجاب فى اسى : قلت لك اننى لا استطيع ذلك . ان السيل لا يمكن ان يقاوم المنبع ، وحياتى التى انقذتهـــا انت ثلاث مرات لا يمكن ان تقاوم حياتك ، ولو اننى اردت لاستحال على ذلك ، فليس لدينا غير خنجر واحد .

وجرد خنجره وهو يقول ذلك وقدمه الى قائلا : خذ .

وكنت قد خرجت عن طورى فاخذت الخنجر وشهرته فوق صدره . ولكنه لم يفكر فى الخلاص منه .

قلت له : ايها الشقى . لا ترغمنى على ارتكاب جريمة قتل ساغمد هذا فى صدرك اذا لم تقل لى اين زوجتى الآن حالا .

اجابنى دون غضب : انت السيد واننى اضرع اليك ان تمهلنى ساعة اخرى وان تتبعنى . انك تشك فى رجل يدين لك بحياته ثلاث مرات ، فى ذلك الذى كنت تدعوه اخاك ، فاسمع ... اذا كنت لا تزال تشك فى بعد ساعة فانت حر فى ان تقتلنى . وانت ترى اننى لا اريد ان اقاومك . اضرع اليك باسم ماريا (واردف يقول فى مشقة) زوجتك ... ساعة اخرى ، واذا كنت اتوسل اليك هكذا فليس ذلك لاجلى ، انما لاجلك انت .

وكانت تشوب صوته رنة من الاقناع والاسى . ولعله كان يقول الصدق . وخوفه على حياته ما كان ليكفى لكى يضفى على صوته هذا الابتهال الحنـــون . وبدا لى انه لا يتوسل من اجل ذاته ، وخضعت مرة اخرى لهذا الميل الغريب الذى يمارسه على والذى خجلت فى ذلك الوقت من الاعتراف به . وقلت :

– حسنا ... اننى امهلك ساعة . وسامضى معك .

واردت ان اعيد اليه الخنجر ، ولكنه قال : كلا . ابقه معك ، فانت ما زلت مرتابا فى . ولكن هلم بنا وكفى مضيعة للوقت .

Looloo
www.dvd4arab.com

راح يتقدمنى . وكان راسك قد حاول مرارا ان يعاود السير اثناء حديثنا ويعود كل مرة وهو ينظر الينا كأنه يسألنا عن سبب وقوفنا . واذ رآنا نمشى من جديد انطلق وقد بدا عليه المرح .

وتغلغلنا فى غابة عذراء ، وبعد نصف ساعة تقريبا وصلنا مغارة جميلة خضراء يرويها جدول صغير وتحيط بها اشجار ضخمة تبلغ من العمر مئات السنين بينها مغارة مدخلها تخفيه عن الابصار اعشاب متسلقة ومتعرشة . وهم راسك بان ينبح ولكن بيبرو اشار اليه فسكت ؛ وبدون ان ينطق بكلمة اخذنى من يدى الى المغارة .

وكانت هناك امراة تولى ظهرها الى باب المغارة وتجلس على بساط من نسيج الحلفاء التفتت عندما سمعت وقع خطواتنا .

كانت هى مارى يا اصدقائى .

وكانت ترتدى ثوبا ابيض كيوم زفافنا وتضع فى شعرها تاج الزهور البرتقالية التى لم اقربها بيدى فى ذلك اليوم . وراتنى وعرفتنى وأطلقت صرخة وهوت بين ذراعى وهى تكاد تطير من الفرح والدهشة . اما انا فكنت مذهولا .

وجاءت على صرختها امراة عجوز تحمل بين ذراعيها طفلا ، اسرعت من غرفة اخرى فى آخر المغارة ، وكانت هى مربية مارى ، اما الطفل فكان آخر وليد لعمى المسكين . وكان بيبرو قد خرج ليأتى بماء من العين المجاورة . ورش قطرات منه على وجه مارى فافاقت من اغمائها وفتحت عينيها وقالت :

— ليوبولد ... حبيبى ليوبولد .

واجبتها : مارى ...

وانتهت بقية كلماتنا فى قبلة .

وصاح صوت مؤثر يقول : ليس امامى .

Looloo
www.dvd4arab.com

والتفتنا واذا به بيير . كان واقفا يشهد فرحتنا كشهيد ، وكان صدره المنتفخ يعلو ويهبط والعرق البارد يتصبب من جبينه . كانت كل اعضائه ترتجف . وفجأة دفن وجهه بين يديه وهرب من المغارة وهو يقول فى صوت مخيف : ليس امامى .

واعتدلت مارى وهى بين ذراعى وهتفت وهى تتابعه ببصرها : يا الهى ! اى حبيبى ليوبولد .. يبدو ان حبنا يؤلمه ... اتراه يهوانى ؟

ايقنت من صيحة العبـــد انه غريمى ، ومن صيحة مارى انه صديقى .

اجبتها وانا اشعر بسعادة غامرة تدخل قلبى وبندم كبير فى نفس الوقت :

– مارى .. اكنت تجهلين ذلك يا مارى ؟

اجابتنى فى حياء ظاهر : وما زلت اجهله .. كيف .. يحبنى ؟ .. لم الحظ ذلك ابدا .

ضممتها الى صدرى وانا سكران وقلت : اننى وجدت زوجتى وصديقى من جديد . ما اسعدنى ! وما اعظم ذنبى .. لقد ارتبت فيه .

اجابت مشـــدوهة . كيف هذا ؟ . فى بيير .. اوه . نعم .. انك اذنبت فى حقه .

واردفت تقول وهى تخفض عينيها : انك تدين له بحياتى مرتين، وربما اكثر ، فبدونه لالتهمنى التمساح ، وبدونه لوقعت فى ايدى الزنوج .. فهو الذى انتزعنى من بين ايديهم فى نفس اللحظة التى اوشكوا فيها ان يلحقونى بابى المسكين .

وامسكت عن الكلام وراحت تبكى فسألتها :

– ولماذا لم يرسلك بيير الى مدينة الكاب ، الى زوجك ؟

اجابت : انه حاول ذلك ، ولكنه لم يستطع ، فقد تعذر عليه ذلك لانه كان لابد له من الاختفاء من السود والبيض فى نفس

Looloo
www.dvd4arab.com

الوقت . ثم اننا لم نكن نعرف ما حدث لك فقد قال البعض انهم راوك تلقى حتفك ، ولكن بييرو اكد لى العكس ، وكنت واثقة من ذلك لانه لو كان قد حدث لك شيء لاستشعرت به ، ولو انك مت حقا لمت انا كذلك .

ـ اذن جاء بييرو بك الى هذا المكان ؟

ـ نعم يا حبيبى ليوبولد . فهذه المغارة فى مكان منعزل ولا يعرف بامرها احد غيره . وانقذ ما بقى من اسرتى فى نفس الوقت ، اى مربيتى العجوز واخى الصغير . واخفانا فى هذه المغارة . واؤكد لك انها مريحة جدا . والآن وقد لحق بنا الخراب فانه يروق لى الاقامة فيها معك . وكان بييرو يوفر لنا احتياجاتنا . فقد كان ياتى غالبا ، وكان يضع ريشة حمراء فوق راسه ، وكان يواسينى ويحدثنى عنك ويؤكد لى انه سيعيدنى اليك . ومع ذلك واذ لم أره منذ أيام ثلاثة فقد بدات اقلق ولكنه عاد معك . اذن فقد ذهب هذا الصديق لكى يبحث عنك .

اجبتها : نعم .

قالت : ولكن كيف يستقيم الوضع اذا كان يحبنى . هل انت واثق ؟

قلت : انى اصبحت واثقا الآن ، فهو الذى هم بان يطعننى ورد يده خوفا من ان يتسبب فى ايلامك ، وهو الذى كان يغنى اغنية الحب ونحن فى الاستراحة .

عادت ماوى تقول فى لهجة ساذجة : حقا ؟ .. هو غريمك اذن ؟ .. اعنى ان الرجل البغيض صاحب باقة الاقحوان ، هو بييرو الطيب .. لا استطيع ان اصدق هذا . لقد كان مهذبا جدا معى ، وشديد الاحترام ... كان يحترمنى اكثر مما كان يفعل وهو عبد لنا . صحيح انه كان ينظر الى احيانا نظرات غريبة ... ولكن لم يكن ذلك الا حزنا وكنت انسب ذلك الى مصيبتى . لو تدرى مبلغ

Looloo
www.dvd4arab.com

اخلاصه وهو يحدثنى عن حبيبى ليوبولد ... ان صداقته كانت تتحدث عنك كما يحدثنى حبى عنك تقريبا .

اطربتنى ايضاحات مارى واثارت حزنى فى نفس الوقت ، فقد تذكرت الحدة التى عاملت بها بيير الوفى واحسست بكل القوة التى كانت تكمن فى لومه الرقيق وهو يقول لى فى خضوع : لست انا ناكر الجميل .

دخل بيير فى هذه اللحظة . كانت سحنته كئيبة حزينة ، وبدا كما لو كان محكوما عليه بالموت ، عانى اشد انواع التعذيب . وتقلب عليها . وتقدم نحوى فى خطوات بطيئة وقال لى فى لهجة يشوبها الجد وهو يشير الى الخنجر الذى كنت وضعته فى حزامى .

ـ لقد انقضت الساعة .

قلت : الساعة ؟ .. اية ساعة ؟

ـ تلك التى منحتنى اياها . كنت بحاجة اليها لكى آتى بك هنا . وقد توسلت اليك عندئذ ان تمنحنى الحياة ، والآن اتوسل اليك أن تسلبنى اياها .

تجمعت فى هذه اللحظة كل مشاعر القلب الرقيقة ... الحب والصداقة والعرفان بالجميل لكى تمزقنى تمزيقا ووقعت عند قدمى العبد من غير ان استطيع النطق بكلمة واحدة وانا ابكى احر بكاء . ورفعنى مسرعا وهو يقول :

ـ ماذا تفعل ؟

ـ اننى ارد لك الاعتبار الذى ادين لك به . اننى لست جديرا بصداقة كصداقتك . ان اعترافك بالجميل لا يمكن ان يذهب الى حد ان تغفر لى جحودى بجميلك .

ارتسم على وجهه تعبير فيه كثير من الخشونة . كان يبدو انه يعانى من معارك نفسية عنيفة . وتقدم نحوى خطوة ثم ارتد . وفتح فمه ثم اطبقه . ولكن هذه اللحظة كانت قصيرة فقد فتح لى ذراعيه قائلا :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ هل استطيع الآن ان ادعوك اخى ؟

وكان جوابى ان ارتميت على صدره .

واردف يقول بعد سكتة قصيرة : انت كريم ، ولكن المصائب جعلتك ظالما .

قلت له : اننى وجدت اخى ولم اعد تعيسا ولكننى اذنبت فى حقك كثيرا .

ـ اذنبت ؟ .. انا الآخر اذنبت فى حقك يا اخى .. واذنبت اكثر منك ؛ ولكنك لم تعد تعيسا الآن ، اما انا فسابقى تعيسا الى الابد ..

ـ ٤٥ ـ

خبت فورة الصداقة التى اضاءت وجهه ، وارتسمت على ملامحه سمات حزن عميق ، وقال فى برود :

ـ اصغ الى . كان ابى ملكا على كاكونجو ، وكان يصدر احكامه العادلة امام بيته ، وكان كلما اصدر حكما يحتسى ، كما هى عادة الملوك ، قدحا مملوءا بنبيذ النخيل ، وكنا سعداء واقوياء . وجاء الاوربيون وزودونا بهذه المعارف الخادعة التى خدعتك . وكان زعيمهم ضابطا اسبانيا وعد ابى ببلاد اوسع من بلاده ، فتبعه ابى هو واسرته ... فهل تعرف ماذا فعل هذا الضابط يا اخى ؟ .. انه باعنا .

وانتفخ صدر الاسود ولمعت عيناه ، وحطم بطريقة آلية شجرة صغيرة بجواره ثم استطرد يقول دون ان يبدو عليه انه يخاطبنى :

ـ واصبح لملك كاكونجو سيدا ، واصبح ابنه عبدا فى بلاد سانتو دومينجو ، وفرقوا بين الاسد الصغير وابيه الشيخ لكى يسهل ترويضهما ، وانتزعوا الزوجة من زوجها ، وبحث الاولاد عن الام التى اطعمتهم وعن الاب الذى كان يمضى بهم الى النهر

Looloo
www.dvd4arab.com

للاستحمام ولم يجدوا امامهم غير طفاة برابرة ، ورقدوا بين الكلاب .

ولزم الصمت لحظة وتحركت شفتاه من غير ان يتكلم . وكانت نظرته ثابتة وشاردة . وامسك بذراعي اخيرا وقال في حدة :

ـ هل تسمع يا اخي ؟ باعوني لاسياد كثيرين كبهيمة من البهائم . هل تتذكر تعذيب اوجيه ؟ .. في ذلك اليوم رايت ابي .. اسمع .. كان هذا في الطريق .

وارتجفت في حين اردف هو يقول : ماتت زوجتي ، وطلبت مني ان انتقم .

واستطرد يقول وهو يطرق براسه الى الارض : هل اقول لك ؟ .. لقد كنت مجرما ، فبعد ان ماتت احببت غيرها . ولكن دعنا من هذا ... راحت كل عشيرتي تلح علي لكي انقذهم وانتقم لنفسي . وكان راسك ياتيني برسائلهم ، ولم يكن باستطاعتي ارضائهم ، فقد كنت انا نفسي سجينا في سجن عمك . وفي اليوم الذي حصلت انت فيه على العفو عني ، مضيت لكي انتزع اولادي من ايدي سيد مستبد . وعندما وصلت يا اخي كان آخر احفاد ملك كاكونجو يحتضر على اثر تعذيب رجل ابيض . وكان الآخرون قد سيقوه .

وامسك لحظة وسالني في برود : اخي ... ماذا كنت تستطيع ان تفعل ؟

جمدت هذه القصة المحزنة اطرافي من الهول ، ورددت على سؤاله بحركة تنطق بالتهديد والوعيد . وفهمني وابتسم في مرارة ثم استطرد :

ـ ثار العبيد على سيدهم واقتصوا منه لقتل اولادي وانتخبوني رئيسا لهم ، وانت تعرف المصائب والفظائع التي جرها هذا التمرد ، وعلمت ان عبيد عمك يستعدون للتمرد هم الآخرون فاسرعت الى الاكول في نفس ليلة التمرد . وكنت انت غائبا ولقي عمك حتفه وهو في فراشه واحرق السود املاكه . واذ لم استطع تهدئة

Looloo
www.dvd4arab.com

غضبهم لاعتقادهم انهم يثارون لى باحراقهم املاك عمك اضطررت ان انقذ ما تبقى من افراد اسرتك ودخلت الحصن من الفتحة التى سبق ان اعددتها ، وعهدت بمربية زوجتك الى اسود مخلص ، ووجدت مشقة كبيرة فى انقاذ ماريا ، فقد اسرعت الى المكان المشتعل من الحصن لكى تنقذ اصغر اخوتها ، وهو الوحيد الذى نجا من المذبحة . واحاط بها بعض الزنوج واوشكوا على الفتك بها ولكننى تقدمت وامرتهم ان يتركونى انتقم لنفسى بنفسى . واخذت زوجتك بين ذراعى وعهدت بالطفل الى راسك ، واتيت بهما الى هذه المغارة التى كنت اعرف وحدى مكانها . هذه هى جريمتى يا اخى .

راح ضميرى يبكتنى اكثر من ذى قبل ، واحسست بالامتنان فى نفس الوقت . واردت ان ارتمى عند قدمى بيرو مرة اخرى ، ولكنه اوقفنى فى استياء وقال وهو يمسكنى من يدى :

ـ هيا ، تعال ... اصطحب زوجتك ولنرحل نحن الخمسة .

وسألته فى دهشة اين يريد ان يمضى بنا فاجابنى :

ـ الى معسكر البيض ، فهذا المكان غير آمن ، فان البيض سيهجمون على معسكر بياسو فى صباح الغد ، وسوف تشتعل الغابة كلها دون شك ، ثم انه لا يجب ان نضيع لحظة واحدة فان عشرة رءوس تضمن راسى ، وفى استطاعتنا الاسراع لانك حر طليق .

ازدادت دهشتى عند سماعى هذه الكلمات ، وسألته عن معناها فقال فى فروغ صبر :

ـ الم تسمع ان بوج جارجال وقع اسيرا .

ـ بلى . ولكن ما شانك انت ببوج جارجال ؟

ارتسمت امارات الدهشة على وجهه هو الآخر واجاب فى لهجة خطيرة : انا هذا البوج جارجال .

ـ ٤٦ ـ

والحق اننى اعتدت المفاجآت مع هذا الرجل ، وقد دهشت وانا ارى قبل ذلك بلحظة العبد بيرو يتحول الى ملك افريقى وازددت

Looloo
www.dvd4arab.com

دهشة وعجبا الآن وانا ارى فيه بوج جارجال ، زعيم متمردى المورن روج الكريم الرهيب . وفهمت اخيرا سبب الاحترام الذى يبديه كل المتمردين ، بما فيهم بياسو نفسه ، لبوج جارجال ، ملك كاكونجو .

وبدا انه لم ير الانطباع الذى احدثته فى نفسى كلماته الاخيرة ، وعاد يقول :

ـ وقد قيل لى انك وقعت اسيرا فى معسكر بياسو فاتيت لكى احررك .

ـ لماذا قلت لى اذن منذ لحظة انك لست حرا ؟

نظر الى كما لو كان يحاول ان يخمن ما الذى حملنى على القاء هذا السؤال الطبيعى ثم قال :

ـ اسمع . كنت صباح اليوم اسير عند قومك ، وسمعتهم يقولون فى المعسكر ان بياسو قد عقد النية على اعدام اسير شاب اسمه ليوبولد دوفرنى عند مغيب الشمس . وقد عززت الحراسة حولى ، وعلمت ان اعدامى سوف يلى اعدامك ، وانني اذا هربت فسوف يعدمون عشرة من زملائي بدلا منى ، فهل فهمت الآن سبب عجلتى .

صحت اساله : اذن فانت قد هربت ؟

ـ وكيف كان يتسنى ان اكون هنا بغير ذلك ؟ اما كان يجب ان انقذك ؟ ألست مدينا لك بالحياة ؟ .. هيا ، اتبعنى الآن . اننا على مسيرة ساعة من معسكر البيض ومعسكر بياسو معا . انظر ... ان الظل يمتد على اشجار جوز الهند ، وسوف تغيب الشمس بعد ثلاث ساعات . تعال يا اخى فان الوقت يمضى سراعا .

سوف تغيب الشمس بعد ثلاث ساعات ! .. جمدت هذه الكلمات الرهيبة الدماء فى عروقى واعادت الى ذاكرتى الوعد الذى قطعته لبياسو . وا اسفاه .. انني ، عندما رايت مارى لم اعد افكر فى فراقنا الابدى القريب . لم اشعر الا بالسرور والنشوة ، فان شتى الانفعالات التى مرت بى انستنى موتى فى غمرة سعادتى . ولكن

Looloo
www.dvd4arab.com

عبارة صديقي ردتني الى الحقيقة المرة .. بعد ثلاث ساعات ستغيب الشمس . كنت بحاجة الى ساعة لكي ابلغ معسكر بياسو . كان واجبي محدودا بفرضه على الشرف ، فقـــد اعطيت كلمتي لذلك الهمجي ، وانني لافضل الموت على ان اقدم له الفرصة في احتقار الشيء الوحيد الذي يبدو انه ما زال يؤمن به ، واعني به شرف رجل فرنسي . كان الاختيار رهيبا ، ولكنني اخترت ما يجب ان افعل غير انني اعترف ايها السادة انني ترددت لحظة ... اتفهل اذنبت ؟

— ٤٧ —

واخيرا اطلقت زفرة حافلة بالاسى واخـــذت بيد بوج جارجال وامسكت بيد زوجتي مارى المسكينة التي راحت تنظر الى في قلق الى السحابة الكئيبة التي انتشرت على ملامحي . وقلت وانا ابذل جهدا كبيرا :

— اي بوج جارجال .. انني اعهد اليك بالكائن الوحيد الذي احبه اكثر منك ... عد بهـا الى المعسكر وحدها لانني لا استطيع مرافقتكما .

صاحت مارى وهي تلهث : رباه ! .. امصيبة اخرى ؟

ارتجف بوج جارجال وارتسمت في عينيه الدهشة البالغة وقال : ماذا تقول يا اخي ؟

وازاء الرعب الذي رايته على وجه مارى وخوفها من مصيبة اخرى دفعتها رقتها المفرطة الى توقع حدوثها رايت ان الواجب يحتم على ان اخفي عنها الحقيقة وان اوفر عليها وداعا مؤثرا فانحنيت فوق اذن بوج جارجال وقلت له في صوت خافت :

— انني اسير ، وعدت بياسو ان اعود واضع نفسي بين يديه قبل مغيب الشمس . انني وعدته ان اموت .

Looloo
www.dvd4arab.com

وثب لفرط الغضب وصاح يقول : يا للوغد ! .. الهذا اراد ان يتحدث معك على حدة ؟ .. لكى ينتزع منك هذا الوعد ؟ .. كان يجب ان ارتاب فى هذا الشقى بياسو . كيف لم اتوقع منه مثل هذا الغدر ؟ .. انه ليس اسود وانما هو خلاسى .

قالت مارى مذعورة : ما الخبر ؟ .. واى غدر ؟ .. واى وعد ؟.. من هو بياسو ؟

قلت لبوج جارجال فى صوت خافت : اسكت .. اسكت .. لا داعى لافزاع مارى .

قال متجهما : حسنا . ولكن كيف قبلت ان تعطيه هذا الوعد ؟ ولماذا وعدته ؟

— ظننتك ناكرا للجميل ، وحسبت مارى من الهالكين ، ففيم كانت تهمنى الحياة ؟

— ولكن وعدا شفويا لا يمكن ان يربطك بهذا الشقى .

— انى وعدته بشرفى .

وبدا انه يحاول ان يفهم ما اعنيه وقال : وعدته بشرفك ! وما قيمة هذا الوعد ؟ انكما لم تشربا من نفس الكاس . ولم تحطما معا خاتما او غصنا من شجرة اسفندان .

— كلا .

— حسنا . ماذا تقول اذن ؟ .. وماذا يربطك ؟

اجبت : شرفى .

— لا ادرى معنى هذا ... لا شىء يربطك ببياسو . تعال معنا .

— لا استطيع يا اخى ؛ فانى وعدت .

صاح فى حدة : كلا . انك لم تعد باى شىء .

ثم رفع صوته وقال : اختاه . انضمى الى وامنعى زوجك من مفارقتنا . انه يريد ان يعود الى معسكر الزنوج الذى خلعته منه بحجة انه وعد زعيمهم بياسو ان يموت .

صحت به : ما هذا الذى فعلت ؟

looloo
www.dvd4arab.com

ولكن الشر كان قد وقع ولم يعد فى وسعى اخفاء الحقيقة ، وارتمت مارى بين ذراعى وهى تطلق صيحة يأس ، وتعلقت بيديها بعنقى وقد خارت قواها وكادت تفقد انفاسها .

وتمتمت تقول فى مشـــــقة : اوه .. ماذا يقول يا ليوبولد .. اصحيح انه لا يخدعنى وانك فى تلك اللحظة التى اجتمعنا فيها تريد ان تتركنى ، وان تتركنى لكى تموت ؟ اجبنى حالا والا مت . لا حق لك فى التفريط فى حياتى لانه لا يجب ان تفرط فى حياتى انا ، ولا اخالك تريد الا تفترق عنى والا ترانى بعد ذلك ابدا .

قلت : لا تصدقيه يا مارى . صحيح اننى سافارقك لانه لابد من ذلك ولكننا سنلتقى فى مكان آخر .

قالت فى فزع : فى مكان آخر ... اين ؟

لم استطع ان اكذب على هذا الملاك فقلت : فى الســماء .

اغمى عليها ثانية ولكن من الالم هذه المرة ، وكان الوقت يمر ، وقد استقر منى العـــــزم فالقيتها بين ذراعى بوج جارجال الذى اغرورقت عيناه بالدموع وقال :

ــ اما من شىء يمكن ان يمنعك اذن ؟ لن ازيد شيئا على ما تراه . ولكن كيف يمكنك ان تقاوم ماريا ؟ اننى لاضحى بالعالم كله فى سبيلها ، من اجل كلمة واحدة ما قالته لك ، فكيف لا تريد أن تضحى لها بموتك ؟

اجبت : انه الشرف . الوداع يا بوج جارجال . الوداع يا اخى . اننى أوصى بها لك .

اخذ يدى . كان قد غرق فى لجة من الافكار ويبدو غير مصغ الى تقريبا وقال : يوجد فى معسكر البيض واحـــد من اقاربك يا اخى ؛ سأسلمه ماريا لاننى لا استطيع قبول وصيتك .

واشار الى صخرة فوق القمة التى تهيمن على المكان وقال :

ــ اترى هذه الصخرة ؟ عندما تظهر فوقها الاشارة التى تدل على موتك فان نبأ موتى لن يلبث ان يطير فى الارجاء .. الوداع .. الوداع .

Looloo
www.dvd4arab.com

وعانقته دون ان اتوقف عند المعنى المجهول لهـذه الكلمات الاخيرة . وطبعت قبلة على جبين مارى الشاحب ، وكانت قد بدات تفيق نتيجة لعناية مربيتها بها . وفررت مسرعا خوفا من أن تفقدنى نظرتها الاولى وزفرتها الاولى كل قواى .

— ٤٨ —

فررت وتوغلت فى الغابة العميقة متتبعا الاثر الذى تركناه دون ان اجرؤ على القاء نظرة خلفى ورحت اجرى دون هوادة خلال التلال والسهول ، كما لو اننى كنت اريد التغلب على الافكار التى راحت تلح على حتى بدا لى معسكر بياسو ، وعندئذ توقفت ، فقد بلغت المرحلة الاخيرة من طريقى ومن حيـاتى نفسها . وشعضع التعب والانفعال قواى فاسـتندت الى شجرة حتى لا اقع ، وسرحت ببصرى فى الوادى الذى يمتد امامى .

حسبت حتى ذلك الوقت اننى تجرعت كل كئوس المرارة والحقد ، ولكننى لم اكن قد عرفت بعد اشد المصـائب قسوة وايلاما ، اى اضطرارى بقوة ادبية اقوى من قوة الاحداث الى التخلى طواعية عن السعادة وعن الحياة وهما ملك يدانى . لم اكن احفل بالحياة قبل ذلك ببضع ساعات ، فاننى لم اكن اعيش لان اليأس المطبق هو ضرب من الموت ، ولكننى نجوت من هـذا اليأس واعيـدت مارى الى ، وبعث هنائى الميت من جديد ، اذا جاز لى هذا القول ، وماضى اصبح مستقبلى ، وبسطت لى الحياة ذراعيها اخيرا ، حياة كلهـا شباب وحب وسعادة . كنت استطيع ان ابدا هذه الحياة الجديدة ، وكل شىء كان يدعونى اليها . لم تكن هناك اية عقبة مادية ولا اية عراقيل ظاهرة . كنت حرا وسعيدا ، ومع ذلك كان لابد لى من الموت ، والموت شىء تافه بالنسبة لرجل يائس تجمدت مشاعره لفرط الالم ، ولكن يده موجعة وباردة عندما تقع على قلب متفتح

Looloo
www.dvd4arab.com

تدفئه مباهج الحياة . احسست بكل هذه المشاعر ، فقد خرجت لمجرد لحظة من القبر ؛ وسكرت فى هذه اللحظة القصيرة بأجمل ما تحت السماء وهو الحب والوفاء والحرية . ولكن تعين على فجاة ان اهبط الى ذلك القبر من جديد .

— ٤٩ —

عندما مرت حسرة الندم استولى على نوع من الغضب وتقلقلت فى الوادى فى خطوات كبيرة فى حاجتى لتقصير المدة ، وتقدمت الى المراكز الاولى لمعسكر الزنوج . وبدت عليهم الدهشة ولم يصدقوا انفسهم ورفضوا ان ياخذونى ، والعجيب اننى اضطررت التوسل اليهم . واخيرا اخذنى اثنان منهم وساقانى الى حيث بياسو .

دخلت مغارة الرئيس . كان عاكفا على بعض ادوات التعذيب ، يحاول ادارة لوالبها . وعندما سمع خطوات حارسيه وهما يدخلانى حول راسه . ولم تبد عليه الدهشة حين وقع بصره على ، وقال وهو يشير الى ادوات التعذيب :

— هل ترى ؟

لزمت الهدوء ، فقد كنت اعرف قسوة « بطل الانسانية » وعقدت العزم على احتمال كل شىء دون اظهار اى الم .

وعاد يقول مزمجرا : اليس صحيحا ان ليجورى كان سعيدا لانه مات مشنوقا ولم يعذب .

نظرت اليه فى برود وازدراء ولم انطق . وعندئذ قال لاحد مساعديه :

— قل لنيافة الكاهن ان ياتى .

وبقينا لحظة صامتين ، ينظر كل منا الى الآخر . كنت انظر اليه . اما هو فكان يراقبنى . ودخل ريجو فى هذه اللحظة وهو بادى الاضطراب وتحدث اليه . وقال بياسو فى هدوء :

Looloo
www.dvd4arab.com

– فليجتمع كل رؤساء الجيش .

وبعد ربع ساعة كان كل الرؤساء ، بثيابهم المختلفة ، وقوفا امام المغارة . ونهض بياسو وقال :

– اسمعوا يا اصدقائى . ان البيض ينوون الهجوم علينا غدا عند بزوغ الفجر ؛ ومكاننا سيىء ويجب علينا مغادرته . فلنبدأ بالسير جميعا عند مغيب الشمس ولنمض الى الحدود الاسبانية . ستكون انت فى المقدمة يا ماكايا وعليك ان تنظم الصفوف الامامية برجالك. اما انت يا باردريجان فدمر قطع المدفعية التى استولينا عليها من برالاتو فانها لن تستطيع ان تفيدنا فى التلال ، وعلى رجال لاكروا ان يتبعوا جنود ماكايا .

وبعد ان اصدر بياسو اوامره بالسير استطرد يقول : واذا قام السحرة او الساحرات باية ضجة فانني ساعهد بهم الى جلاد الجيش، واذا بقى بعض الاسرى فاذبحوهم . اعدوا بنادقكم وسمموا سهامكم والقوا ثلاثة اطنان من الزرنيخ فى المنبع الذى يستقى منه الجنود . سيظن المستعمرون انه سكر وسيشربون دون اى حذر . سدوا كل الطرق بالاحجار الكبيرة ، واحرقوا الغابات .

« اما انت ياريجو فابق معنا . اما زنوج المورن روج فيسيرون فى المؤخرة ، ولا تدعهم يخلون المنطقة الا مع طلوع الشمس .

وانحنى نحو ريجو واردف فى صوت خافت : انهم زنوج بوج جارجال ، واذا كان لابد من موتهم فليكن وليمت زعيمهم .

وعاد يقول وهو يعتدل : يمكنكم ان تنصرفوا الآن . وسياتيكم كاندى باوامرى .

وقال ريجو بعد ان انصرف الزعماء : ايها القائد . يجب ارسال رسالة جان فرانسوا . ان موقفنا فى غاية السوء وقد توقف هذه الرسالة البيض .

اسرع بياسو واخرج الرسالة من جيبه وهو يقول : لقد ذكرتنى

Looloo
www.dvd4arab.com

بها . ولكن بها اغلاط لغوية كثيرة تدعو الى الضحك .

وعرض على الرسالة وهو يقول : اسمع . هل تريد انقاذ حياتك ؟ ان كرمى يسالك مرة اخرى ان تتخلى عن عنادك . ساعدنى فى اعادة صياغة هذه الرسالة . سأملى عليك افكارى فتصوغها فى لغة سليمة .

هززت راسى نفيا فقال وقد عيل صبره : هل ترفض ؟

اجبت : نعم .

عاد يلح قائلا : فكر جيدا .

وبدا يحاول ان يلفت بصرى الى ادوات التعذيب التى كان يلهو بها . ولكننى قلت :

ـ اننى ارفض لاننى فكرت جيدا . يبدو لى انك تخشى على نفسك وعلى رجالك وتعتمد على رسالتك للجمعية لتاخير انتقام البيض ، وانا لا اريد حياتى اذا كانت سببا فى انقاذ حياتك ، فابدا بتعذيبى .

قال بياسو وهو يركل آلة التعذيب بقدمه : آه . آه . يبدو لى انك قد اعتدت التعذيب . ويسئونى هذا . ولكن لا وقت لى لكى اسومك العذاب فان هذا الموقع شديد الخطر ويجب ان نغادره باسرع وقت . آه . انك ترفض ان تكون سكرتيرا لى . والحق انك على حق ، فما كنت لادعك على قيد الحياة بعد ذلك اذ لا يجب ان يعيش احد يعرف سرا من اسرار بياسو ، ثم اننى وعدت الكاهن بان اقدمك اليه لكى تموت على يديه يا عزيزى .

وتحول الى الكاهن ، وكان قد دخل فى هذه اللحظة ، وقال : ايها الاب الطيب ، هل رجالك مستعدون ؟

اومأ الكاهن بالايجاب . وعاد بياسو يقول : هل جمعتهم من رجال المورن روج ، فهم الوحيدون فى الجيش الذين لا يرغمهم شىء على التحرك بعد .

اومأ الكاهن بالايجاب للمرة الثانية . واشار بياسو عندئذ باصبعه

Looloo
www.dvd4arab.com

الى العلم الاسود الذى كنت قد لحظته قبل ذلك والموضوع فى ركن المغارة وقال :

ـ هل ترى هذا العلم ؟ انه هو الذى سينبىء قومك بنهاية اجلك. وساكون قد غادرت المعسكر عندئذ . وبهذه المناسبة ، انك تجولت فى السهول اليوم ، فكيف وجدتها ؟

اجبت فى برود : رايت اشجارا كثيرة تكفى لشنقك انت وجميع رجالك .

قال وهو يحاول الابتسام : حسنا . هناك مكان لم تره بعد . سيمضى الكاهن به اليك . الوداع ايها النقيب الشاب وتحياتى الى ليجورى .

وحيانى وهو يضحك تلك الضحكة التى ذكرتنى بفحيح الثعبان المجرس ، ثم اتى باشارة واولانى ظهره ، وساقنى الزنوج .

ورافقنا الكاهن ومسبحته فى يده .

ـ ٥٠ ـ

مشيت بينهم دون ان ابدى اية مقاومة ، وصحيح انها ما كانت لتجدينى شيئا ، فقد كنا نصعد قمة جبل غرب المغارة حيث استرحنا لحظة . وهناك القيت نظرة اخيرة على الشمس الغاربة التى لا يجب ان تشرق على ، ونهض حراس وتبعتهم وهبطنا واديا صغيرا ما كان الا ليفتننى بجماله وروعته فى وقت آخر ، يخترقه نهر يعرضه ويكسب ارضه رطوبة خصبة . كان هذا النهـــر يصب فى نهاية الوادى ، فى احدى هذه البحيرات الزرقاء التى تنتشر فى التلال . وكم من مرة جلست على ضفاف هذه البحيرات واطلقت لاحـلامى العنان ، فى تلك الساعة التى تكتسب السماء فيها تلك الحمرة الجميلة اثناء مغيب الشمس ، امتع العين بما يحيط بى من اشجار النخيل واشـــجار الدلب ذات الزهور الكبيرة واشجار المنغوليا

Looloo
www.dvd4arab.com

بكئوسها العريضة ، واشجار الابنوس والاعشاب المتسلقة التى تخفى عن العيون جوانب الصخور السمراء الغريبة ، وترتفع من كل نقاط هذه الارض العذراء رائحة زكية بدائية كتلك التى لابد قد استنشقها اول رجل مع اولى زهور الجنة الارضية .

هذا ونحن نمشى بطول الطـــريق الممهد على شواطىء النهر . ودهشت حين رأيت ان هذا الطريق يؤدى فجأة الى اسفل صخرة منحدرة لحظت بعدها فتحة على هيئة القوس يجرى النهر خلالها . وانبعث من داخل هذا القوس صوت اصم ورياح شديدة هوجاء ، وانعطف الزنوج الى اليسار خلال طريق وعر عسير بدا ان مياه نهر جف قد حفرته منذ وقت طويل . واعترضتنا قبة تغطى الاعشاب والاشواك البرية نصفها ، وسمعت تحت هذه القبة صوتا اشبه بذلك الصوت الذى انبعث داخل القوس . وساقنى الزنوج اليها ، وفى اللحظة التى خطوت فيها اول خطوة فى هذا النفق اقترب الساحر منى وقال فى صوت غريب :

ـ اليك ما انتبا به لك الآن . واحد منا نحن الاثنين سيخرج من هذه القبة ويعود الى هذا الطريق .

وانفت من الرد عليه . ومشينا فى الظلام . وازداد الصوت حدة وعنفا ، ولم نعد نسمع صوت خطواتنا ، وادركت انه يصـــدر من شلال ، ولم اخطىء .

وبعد مسيرة عشر دقائق فى الظلام ، بلغنا ارضا منبسطة كونتها الطبيعة فى جوف الجبل . وكان اكبر جزء من تلك البقعة المسطحة اشبه بنصف دائرة يغطيها النهـــر الذى يتفجر من عروق الجبل بصوت مدو ، فى اعلاها قبة مكسوة باللبلاب الاصفر ، وكان ضوء النهار . يتسرب من هذه القبة ، واشعة الشمس الذهبية التى توشك على المغيب . وفى الناحية الشمالية من هذه البقعة يختفى النهر فى هاوية عميقة . كان الضوء الخفيف الذى يتسرب من سطح القبة يبدو كانه يطفو فى جوفها دون أن يفرق ، وعلى حافة الهاوية

Looloo
www.dvd4arab.com

تنحنى شجرة عتيقة تختلط اغصانها بزبد التلال ، ويخترق جذعها المعقد الصخرة على مسافة قدم او قدمين فوق الشاطىء . كانت هذه الشجرة على هذه الصورة تغوص بهامتها وجذعها فى النهر فى نفس الوقت ، ويتدلى غصن منهـا فى الهاوية كما لو كان ذراعا معروقا . وكانت الشجرة نفسها جرداء لا ترى فيها ورقة واحدة ، بحيث لم يكن من الممكن معرفة نوعها . وكان لهـا منظر غريب ، والرطوبة التى تغمر جذورها هى وحدها التى تمنعها من الموت ؛ فى حين ان عنف الشلال كان ينتزع منها بطريقة متعاقبة اغصانها الجديدة ويرغمها على الاحتفاظ بنفس الاغصان الى الابد .

— ٥١ —

وقف الزنوج فى ذلك المكان ، ورايت عنـدئذ انه لابد لى من الموت .

وعندئذ ، وبجوار هذه الهاوية التى ساهوى اليها-طواعية شيئا ما عادت الى مخيلتى صورة السعادة التى تخليت عنها منذ ساعات قليلة ، وهاجمتنى فى حسرة وندم تقريبا ، وكان كل توسل للابقاء على حياتى غير جدير بى ، ومع ذلك فلم يسعنى الا ان اتنهد واقول :

— ايها الاصدقاء ، هل تعرفون ان من المحزن ان يموت المرء وهو فى العشرين من عمره وهو يتقد قوة وحياة ويحب ويترك خلفه محبوبته تبكى حتى تنطفىء الجذوة من عينيها ؟

ردت على قولى هذا ضحكة مخيفة . كانت ضحكة الساحر . واقترب منى ذلك القزم الخبيث الغامض وقال :

— ها ، ها ... هل تتحسر على الحياة الآن ؟ .. كان خوفى الوحيد هو الا تهاب الموت .

وخيل لى مرة اخرى اننى اعرف صاحب هذا الصـوت وهـذه الضحكة فصحت :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ من انت ايها الشقى ؟

اجابنى فى صوت رهيب : ستعرف ذلك .

ثم أزاح عن صدره الشمس الفضية التى تحجبه وقال : انظر .

انحنيت فوقه . كان هناك اسم محفور على صدره بحروف بيضاء بفيضة لا يمكن محوها اذ كانت مطبوعة على صدره بحديد محمى ، كما يفعل الاسياد بعبيدهم . وكان الاسم هو لقب عمى ولقب اسرتى وهو : دوفرنى . وعقدت الدهشة لسانى .

وسألنى الساحر : حسنا : ليوبولد دوفرنى .. هل عرفتنى من اسمك .

دهشت وانا اسمع هذا الرجل ينطق باسمى ، وقلت وانا احاول ان اجمع ذكرياتى :

ـ كلا . هذا الاسم لم يكتب ابدا الا على صدر المهرج . وقد مات القزم المسكين ، ثم انه كان وفيا مخلصا لنا . لا يمكن ان تكون انت هابيبراه .

صاح فى صوت مخيف : بل انا هابيبراه .

ورفع القناع عن وجهه الدميم ، ولكن مرحه العادى الذى عرفته عنه تبدل الى تعبير كله وعيد وتهديد . وصحت وقد ازدادت دهشتى :

ـ رحماك يا ربى .. هل يبعث كل الموتى ؟ .. انه هابيبراه ، مضحك عمى .

وضع القزم يده على خنجره وقال فى صوت اصم : مضحكه وقاتله .

تراجعت مرتاعا وقلت : قاتله ! .. ايها المجرم ! .. اهذا جزاء كرمه وعطفه ؟

ـ كرمه وعطفه ؟ .. بل قل اهاناته .

قلت : ماذا تقول ؟ .. انت الذى قتلته ايها الوغد ؟

اجاب وفى عينيه تعبير رهيب : نعم ، انا . اغمدت الخنجر فى

Looloo
www.dvd4arab.com

قلبه حتى مقبضه وهو نائم ولم يفق من نومه الا لكى يلفظ روحه .
وهو يصيح : النجدة يا هابيبراه .

وقد أنجدته .

اهاجتنى قصته البشعة ورباطة جاشه وصحت :

ـ أيها الوغد .. أيها القاتل الجبان .. انسيت المزايا والهبات التى لم يكن يمنحها لغيرك . كنت تاكل بجواره وتنام بجوار فراشه .

قاطعنى فجاة قائلا : كالكلب . ولكن ما عليك . انني لم انسى هذه الميزات ولا تلك الهبـــات التى لم تكن فى حـد ذاتها الا اهانات وازدراءات ، وقد انتقمت منه . وسانتقم منك الآن . هل تظن انني، وانا خلاسى وقزم مشوه لـست رجلا . آه . ان لى روحا ، وروحا اشد عمقا وقوة من تلك الروح التى سانتزعها من جسدك الشبيه بجسد فتاة . انني أعطيت لعمك كما لو كنت فردا اقوم على تسليته ويمطرنى باحتقاراته . تقـول انه كان يحبنى ؟ كان لى مكان فى قلبه ، بين قروده وببغائه ولكننى اخترت مكانا آخر ، بخنجرى .

ارتعدت فى حين استطرد القزم يقول :

ـ نعم . انا .. انا هو .. انظر الى وجها لوجه يا ليوبولد . انك ضحكت على بما فيه الكفاية . ويمكنك ان ترتعد الآن . آه . انك تذكرنى بذلك التفضيل المخجل الذى كان عمك يؤثرنى به . واى تفضيل ؟ كنت اذا دخلت صالوناتكم قابلتنى آلاف الضحكات ، فان قامتى وجسمى المشوه وملامحى وثيابى المضحكة ، وكل العـاهات المحزنة التى حبتنى بها الطبيعة . كان كل هذا يبعث على سخرية عمك المقيتة وعلى سخرية اصدقائه الممقوتين . وانا لم اكن استطيع حتى ان اسكت ، فقد كان لابد لى ، ويا لغضبى ، ان امزج ضحكى بضحكاتهم التى كنت استثيرها . اجبنى . هل تعتقد ان مثل هذه التحقيرات كان يمكن ان تكون سببا لكى احتفظ له بالجميل والعرفان. الا تظن انها تعادل بؤس العبيد الآخرين والعمل المضنى المستمر ولفح الشمس ولدغ الحديد وسياط المشرفين . الا تظن انها لا تكفى لاضرام

Looloo
www.dvd4arab.com

نار الحقد الدفين فى قلب الرجل . آه . لكم تألمت لان فترة الانتقام كانت قصيرة ولانني لم استطع ارد للمستبد العجوز كل الاهانات التى الحقها بى والتى لا استطيع نسيانها بعد مرور كل هذا الوقت . ويا لندمى لانه لم يعرف قبل ان يموت مرارة الكبرياء الجريحة ويشعر بالآثار المحرقة التى تخلفها دموع العار والغضب على وجه رسمت عليه الطبيعة ضحكة دائمة . ويا لندمى لانه لم يعرف اليد التى طعنته تلك الطعنة القاتلة ، فقـــد مات من غير ان يعرفنى وخدع غضبى انتقامى . ولكن انتقامى سيكون كاملا هذه المرة على الاقل ولعلك ترى ذلك ... وصحيح انك تكاد لا تعرفنى فى هذا اليوم الجديد الذى يظهرنى لك ، فانت لم ترنى ابدا الا ضاحكا مرحا . ولكن الآن حيث لا يمنع روحى اى شىء لكى تظهـــر فى عينى فانتى لا اشبه نفسى . لم تكن تعرف الا قناعى ، واليك الآن وجهى .

كان وجها مخيفا بشعا وصحت :

ــ ايها الوحش . انت واهم فما زالت بشاعة وجهك وقسوة قلبك تدل على ما فيك من تهريج وجنون .

قاطعنى هابيبراه قائلا : لا تتكلم عن البشاعة .. وتذكر قسوة عمك .

صحت محنقا : ايها الوغد . اذا كان قاسيا فقد كان ذلك بسببك . انك ترثى لمصير العبيد المساكين ولكن اذا كان ما تقول صحيحا فلماذا كنت تنتهز ضعف شـــيدك وتدفعه الى القسوة باخوانك ولا تنتهز صداقته وحبه لك لكى تخفف من مصائبهم ؟

ــ ما كان ذلك الا ليثير استيائى . أامنع انا رجلا ابيض من ان يدنس نفسه بالانغماس فى القسوة والفظاعة ؟ .. كلا ، كلا . كنت ادفعه على العكس لكى يزداد طغيانا ويقسو على عبيده اكثر واكثر لان ذلك كان يعجل بـــاعة الانتقام . انى بتظاهرى بالامعان فى اساءة اخوانى كنت اخدمهم .

تملكتنى الحيرة ازاء هذه التركيبة الغريبة من البغضاء واستطرد القزم :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ حسنا . اترى انني احسنت التدبير والتنفيذ ؟ .. ما رايك في المهرج هابيبراه ؟ .. ما رايك في مجنون عمك ؟

اجبت : اتمم ما بدأته . اقتلني واسرع .

راح يمشي جيئة وذهابا فوق البقعة المنبسطة وهو يدعك يديه ويقول :

ـ واذا راق لي الا اسرع ؟ .. واذا طاب لي ان استمتع بعذابك ؟ ان بياسو كان مدينا لي بنصيبي في الغنيمة التي سلبناها اخيرا ، وعندما رايتك في معسكر السود لم اطلب منه غير حياتك ، وقد منحني اياها طواعية ، والآن اصبحت لي انا ويروق لي ان الهو بها . سوف القي بك في هذه الهاوية بعد قليل فاطمئن . ولكن يجب ان اقول لك قبل ذلك انني اكتشفت مخبأ زوجتك ، وقد اوعزت الى بياسو اليوم ان يحرق الغابة . ولا ريب انه قد بدأ بذلك الآن . وهكذا ابيدت اسرتك ، فقد مات عمك بالحديد وستموت انت في الماء وستموت مارى في النار .

صحت : ايها الوغد .. ايها الوغد .

واثبت بحركة لكي اهجم عليه ، ولكنه تحول الى الزنوج وقال :

ـ قيدوه اذن ... انه عجل بمنيته .

وبدأ الزنوج يقيدونني بالحبال التي اتوا بها معهم في صمت . وفجأة خيل لي انني اسمع نباح كلب من بعيد ، وحسبت انني واهم ، وان الصوت انما هو صدى هدير الشلال .

وفرغ الزنوج من عملهم ، وقربوني من الهاوية التي يجب ان تبتلعني . وعقد القزم ذراعيه فوق صدره ونظر الي وهو يبتسم ابتسامة انتصار . ورفعت عيني نحو الفتحة تهربا من منظره البشع ولكي انظر الى السماء . وفي هذه اللحظة سمعت النباح ، وكان اشد واقوى . وظهرت راس راسك الضخمة في الفتحة فارتعدت في حين صاح القزم في صوت حاد :

ـ هيا ... القوا به .

Looloo
www.dvd4arab.com

وكان السود لم يفطنوا الى نباح الكلب وهموا بالقائى فى الهاوية .

— ٥٢ —

صاح صوت جهورى يقول : ايها الرفاق .

تحول الجميع . كان بوج جارجال يقف على حافة الفتحة ترفرف على راسه ريشة حمراء . وعاد يقول :

— ايها الرفاق !

واردف يقول اذ رآهم ينظرون اليه : انا بوج جارجال .

ضرب السود جباههم بالارض وهم يصيحون صيحات لم استطع تمييزها وصاح بوج جارجال :

— فكوا قيود الاسير .

وهنا بدا ان القزم قد افاق من الذهول الذى اصابه من ظهور بوج جارجال المفاجىء فاوقف فجاة سواعد السود الذين يهمون بقطع قيودى وهو يصيح :

— كيف هذا ؟ .. من الذى يجرؤ على اصدار اوامره هنا ؟

ثم تحول الى بوج جارجال وقال : ماذا اتيت تفعل هنا يا زعيم المورن روج ؟

اجاب بوج جارجال : جئت اصدر اوامرى لاخوانى .

قال القزم فى غيظ مكتوم : صحيح انهم سود من قوم المورن روج .

ثم اردف يقول فى صوت مرتفع : ولكن باى حق تريد التصرف فى اسيرى ؟

اجابه الزعيم : انا بوج جارجال .

ضرب السود الارض بجباههم فى حين عاد هايبراه يقول : لا يمكن لبوج جارجال ان ينقض ما وعد به بياسو . لقد منحنى بياسو الرجل الابيض واريد ان يموت وسيموت .

Looloo
www.dvd4arab.com

واردف يقول مخاطبا السود : اما انتم فاطيعونى ... القوا به فى الهاوية .

واستجابة لصوت الساحر القوى نهض السود وتقدموا نحوى خطوة ، وظننت ان ساعتى قد حانت . ولكن يوج جارجال صاح بهم :

ـ فكوا قيود الاسير .

وفكوا قيودى على الفور . وتساوت دهشتى بدهشة الساحر . واراد ان يرتمى علي ولكن السود اوقفوه . وعندئذ راح يطلق اللعنات والتهديدات فقال :

ـ كيف هذا ؟ اترفضون اطاعتى أيها الاشرار . اتنكرون صوتى . لماذا اضعت وقتى فى الاستماع الى هذا الملعون ؟ كان يجب ان القى به الى الاسماك على الفور ، لانني اردت ان يكون انتقامى كاملا هانذا افقده . آه ، أيها الشياطين اللاعين . اسمعونى انتم الاخرون ... اذا لم تطيعونى وتلقوا بهذا الابيض الشرير فى النهر فانني سالعنكم ... ستشيب شعوركم ، وستغدو سيقانكم وسواعدكم كالاغصان ، وستموتون شر ميتة . وبعد موتكم ستظل ارواحكم هائمة لا تعرف لها مستقرا ابدا .

كان لهذا المشهد فى نفسى اثر غريب .. الوحيد من سلالتى فى هذا النفق الرطب الاسود يحيط بى هؤلاء الزنوج كالشياطين ، واقفا على حافة هاوية لاقرار لها . تارة يهددنى هذا القزم الدميم والساحر المشوه فى هذا اليوم الشاحب الذى لا يكاد نوره يبين ثوبه المخطط وطاقيته المدببة ، وتارة اخرى يدافع عنى ذلك الاسود العملاق الذى ظهر فجاة من تلك الفتحة التى تتسرب منها اشعة الشمس الاخيرة ، وخيل لى اننى اقف على ابواب الجحيم واننى انتظر الموت او النجاة واشهد احدى هذه المعارك المستمرة بين ملاكى الحارس وشيطانى الشرير .

وبدا ان السود قد تولاهم الذعر والفزع من لعنات الساحر ، واراد هذا الاخير ان ينتهز فرصة ترددهم فصاح :

ـ اريد ان يموت الابيض فاطيعونى والقوا به فى النهر .

Looloo
www.world4arab.com

ولكن بوج جارجال رد عليه فى قوة وحزم :

ـ بل سيعيش . انا بوج جارجال . كان ابى ملكا على بلاد كاكونجو ، وكان يصدر احكامه العادلة على عتبة داره .

خر الزنوج ساجدين من جديد . واستطرد بوج جارجال :

ـ اخوانى . اذهبوا وقولوا لبياسو الا ينشر العلم الاسود الذى يجب ان ينبىء البيض بموت هذا الاسير لان هذا الاسير انقذ حياة بوج جارجال وبوج جارجال يريده ان يعيش .

نهضوا واقفين والقى بوج جارجال بريشته الحمراء بينهم . وعقد رئيس السود ذراعيه فوق صدره ثم التقط الريشة فى احترام ، وخرجوا بعد ذلك دون ان ينطقوا بكلمة . واختفى الساحر فى ظلمات النفق .

لن احاول ان اصف لكم ايها السادة الموقف الذى وجدت نفسى فيه . وحدقت بعينى المبتلتين فى بيير . وكان هو يتفرس فى وفى عينيه تعبير غريب من الشكر والكبرياء . واخيرا قال :

ـ الحمد لله . لقد انتهى كل شىء يا اخى ، فعد من حيث اتيت . سوف تجدنى فى الوادى .

واشار الى بيده وانصرف .

ـ ٥٣ ـ

تعجلت المضى الى ذلك الموعد لاعرف الظرف السعيد الذى ساق منقذى الى فى الوقت المناسب وتاهبت للخروج من المغارة المخيفة ، ولكن كانت لا تزال تنتظرنى اخطار جديدة .

ففى اللحظة التى اتجهت فيها نحو النفق اعترضنى عائق غير متوقع وسد على المدخل . وكان هو هابيبراه بالذات فان القزم الحقود لم يتبع الزنوج كما ظننت وانما اختفى خلف صخرة ينتظر اللحظة المناسبة لانتقامه . وجاءت هذه اللحظة وخرج القزم امامى فجاة وضحك . كنت وحدى واعزل ، وكان فى يده خنجر يلمع . وعندما وقع بصرى عليه تراجعت رغما عنى .

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ آه . آه . اظننت انك تستطيع الافلات منى ؟ ولكن المجنون اقل منك جنونا . انك وقعت فى يدى ولن ادعك تنتظر هذه المرة . ولن ينتظر صديقك بوج جارجال عبثا ، فستذهب الى الموعد الذى ضربه لك فى الوادى ، ولكن امواج النهر هى التى ستتكفل بارسالك اليه .

وفيما هو يتكلم هكذا اندفع نحوى شاهرا خنجره ، فقلت وانا ارتد الى الخلف .

ـ ايها الوحش . لم تكن منذ لحظات اكثر من جلاد اما الآن فانت قاتل .

اجابنى وهو يكشر عن اسنانه : انى انتقم لنفسى .

كنت اقف فى هذه اللحظة وحدى على حافة الهاوية . وهجم على فجاة لكى يلقى بى فيها بطعنة من خنجره . ولكننى تجنبت الهجوم ، ففقد توازنه وانزلق فوق الطحلب اللزج الذى يكسو الصخور وتدحرج فوق المنحدر الذى تهدر الامواج تحته .

وصاح مزمجرا : يا للشياطين !

ووقع فى الهاوية .

وسبق ان قلت لكم ان جذع الشجرة العتيقة يخترق الصخرة فوق الشاطىء بقليل . والتقى القزم به فى سقطته والتفت جونلته بعقد الجذع فانتهز هذه الفرصة وتعلق به بقوة غريبة . وافلتت طاقيته المدببة من فوق راسه واضطر ان يتخلى عن خنجره . واختفت الطاقية باجوافها فى الهاوية مع الخنجر .

حاول هابيبراه وهو يتعلق بالهاوية ان يصعد الى الشاطىء ، ولكن ساعديه القصيرين لم يستطيعا بلوغ قمة المنحدر ، وراحت محاولاته لبلوغ سطح الصخرة اللزج والتى تشرف على الهاوية السحيقة عبثا . وصاح غيظا .

كانت اقل حركة من ناحيتى كافية لان تلقى به فى جوف الهاوية ، ولكن مثل هذا العمل كان جبنا ولم افكر فيه لحظة واحدة . ودهشه جمودى هذا . وحمدت الله على النجاة التى ارسلها الى بهذه الطريقة غير المرجوة وهممت بان ابتعد وان اتركه لمصيره المحتوم

Looloo
www.dvd4arab.com

عندما سمعت صوته يخرج فجأة من الهاوية فى توسل وانين :

ـ ايها السيد .. ايها السيد .. لا تنصرف بالله ! .. لا تدع شخصا مذنبا يموت وهو غير نادم وفى مقدورك ان تنقذه . وا اسفاه .. ان قواى توشك ان تخذلنى ، والغصن يوشك ان ينكسر وها هو ينحنى تحت ثقلى ، وثقل جسدى يجذبنى .

اقتربت من الهاوية متأثرا بصياحه ، والنور الباهت الذى كان يتسرب من الفتحة اضاء وجهه الدميم . وكانت سحنته قد تغيرت ورايت فيها رجاء وتوسلا لم يسبق ان رايتهما من قبل .

وعاد يقول وقد راى على وجهى امارات الشفقة والرثاء : مولاى ليوبولد . هل يعقل ان يرى انسان اخا له فى مثل هذا الموقف الفظيع وفى مقدوره ان ينقذه ولا يفعل ؟ .. بقليل من العون يمكنك انقاذى . وما هو كل شىء بالنسبة لى انما هو قليل بالنسبة لك . ارحمنى وانقذنى . ان عرفانى بجميلك سيعادل جرائمى .

قاطعته : لا تذكرنى بجرائمك ايها الشرير .

قال : انما اذكرها لانى اكرهها يا سيدى . كن اكثر رحمة منى . اواه . ايتها السماء . ان الضعف يعترينى فابسط يدك بحق الام التى انجبتك .

ويتعذر على ان اصف لكى كيف احدثت لهجته الحزينة التى تحفل بالخوف والذعر اكبر الاثر فى نفسى ، ونسيت كل شىء فلم يعد عدوا ولا خائنا ولا قاتلا . انما كان رجلا تعيسا يمكن لاقل جهد منى انقاذه من موت بشع . فقد كان يتوسل الى بصورة يرثى لها .

انحنيت وجثوت على حافة الشاطىء وقد اعتمدت باحدى يدى على جذع الشجرة الذى يتعلق به هابيبراه المسكين وبسطت له يدى الاخرى ... وما ان اصبحت فى متناوله حتى امسكها بكلتا يديه بقوة عجيبة ، وبدلا من ان يعاونني لكى يصعد كما كنت اتوقع اذا به يحاول ان يجذبنى الى الهاوية معه . ولو ان جذع الشجرة لم يكن لى عونا قويا لانتزعتنى جذبته ولهويت الى الهاوية . وصحت به اقول :

ـ ايها الوغد .. ايها الوغد !

اجابنى وهو يضحك ضحكة رنانة جهنمية : انى انتقم لنفسى .

Looloo
www.dvd4arab.com

آه . انك وقعت فى يدى اخيرا . كنت انت قد نجوت وكنت انا ضائعا ، وانت الذى ستهوى الآن طواعية فى الهاوية . وهذا عزائى ما دام موتى قد اصبح انتقامى . انك وقعت فى الشرك وساصطحب معى رفيقا بشريا لنكون طعاما للاسماك .

قلت وانا ابذل جهدا كبيرا لكى اتشبث بجذع الشجرة : ايها الغادر . . اهكذا تكافئنى لانى اردت ان انقذك من الموت ؟

اجاب : نعم . انى اعرف انى قد انجو معك ولكننى اؤثر كثيرا ان تموت معى . انى افضل بكثير موتك على حياتى . تعال .

وفى نفس اللحظة توترت يداه الخشنتان النحاسيتان على يدى فى قوة خارقة ووميضت عيناه وعلا الزبد فمه ، وعادت اليه قواه التى تخلت عنه قبل ذلك بلحظة وقد تضاعفت بالغضب والانتقام . واعتمد بقدميه على جانب الصخرة العموديين وراح يتحرك كالقهد فوق الجذع الذى امتزج بثيابه التى حمته من السقوط ، محاولا ان يحطمه لكى يقع ويجرنى معه . وكان يتوقف بعض الوقت ثم يعاود محاولته من جديد وهو يضحك ضحكة شيطانية كانت تزيد وجهه دمامة . ولو ان احدا رآه عندئذ لحسبه شيطانا يحاول ان يجر فريسته الى عالمه المظلم المخيف .

وكان من حسن حظى ان احدى ركبتى انحشرت فى احدى تجويفات الصخرة ، والتف ذراعى بالشجرة التى اعتمد عليها . ورحت اقاوم محاولات القزم بكل القوى التى يبعثها حب البقاء فى مثل هذه اللحظة . وكنت من وقت لآخر ارفع صدرى بمشقة كبيرة واصيح بملء قواى « بوج جارجال » ، ولكن هدير الشلال وبعد المسافة لم يتركا فى نفسى اى امل لكى يسمع صوتى .

ولم يكن القزم يتوقع منى كل هذه المقاومة فضاعف من قوته ومن محاولاته العنيفة . وبدات افقد قواى على الرغم من ان هذه المقاومة لم تدم الا وقتا اقصر مما اخذته فى سردها عليكم ، واحسست بالشلل يتسرب الى ذراعى وبسحابة تغطى عينى وطنين يملأ اذنى وسمعت الجذع يطقطق ويوشك ان ينكسر ، والساحر يضحك وهو يوشك على السقوط ، وبدا لى ان الهاوية تصيح وهى تدنو منى .

Looloo
www.dvd4arab.com

ودفعنى اليأس الى محاولة اخيرة ، فجمعت قواى الواهنة وصحت اقول مرة اخرى « بوج جارجال » . ورد على نباح راسك فحولت عينى . كان بوج جارجال وكلبه واقفين على حافة الفتحة ، ولا ادرى هل سمع صوتى او اذا كان القلق تملكه وعاد وراى ما أنا فيه من خطر .

وصاح بى : تمالك نفسك .

وخشى هايبيراه ان انجو فصاح بدوره وهو يتميز غيظا : بل تعال .

وجمع قواه لكى يتغلب على ما بقى من قوتى ومقاومتى .

وفى هذه اللحظة كل ذراعى وافلتت اصابعى الجذع الذى كانت تتشبث به . وادركت ان امرى قد انتهى عندما احسست بمن يمسكنى من خلف . كان راسك ، فعلى اشارة من سيده وثب من الفتحة الى الشاطىء واسكنى بفمه من ثيابى بكل قواه . وانقذتنى هذه النجدة غير المتوقعة . وكان هايبيراه قد استنفد كل قواه فى محاولته الاخيرة . وجمعت قواى لكى انتزع يدى منه واضطرت اصابعه التى غلبها الخدر والتوتر الى ان تتخلى عنى اخيرا ، والجذع الذى تحمل كل هذه المحاولات انكسر تحت قدميه . وبينما كان راسك يجرنى الى الخلف بقوة هوى القزم الشرير فى الهاوية بين زبد الشلال المظلم وهو يرمينى بلعنة لم اسمعها وعادت معه فى الهاوية .

تلك كانت نهاية مهرج عمى .

— ٥٤ —

ضعضعنى هذا المشهد الرهيب الذى مر بى ، وهذا النضال الضارى وهذه النهاية المروعة . وخرجت من كل ذلك وقد خارت قواى ولم اعد اعى ما حولى . وافقت من ذهولى على صوت بوج جارجال وهو يقول لى :

— اى اخى .. عجل بالخروج من هنا . ان الشمس ستغيب بعد نصف ساعة . سانتظرك هناك ، فاتبع راسك .

Looloo
www.dvd4arab.com

اعادت هذه الكلمات الرقيقة الامل والقوة والجراة الى نفسى فى وقت واحـــد فنهضت ، وانطلق الـكلب مسرعا فى النفق فتبعته يرشدنى نباحه فى الظلام . وبعد بضع دقائق رايت نور النهـــار امامى . وبلغنا اخيرا مدخل النفق فتنفست الصعداء وتذكرت وانا اخرج من تحت القبة الرطبة السوداء نبوءة القزم ونحن ندخلها : واحد منا سيعود من هذا الطريق .

لقد اخطأ فى توقعاته ولكن نبوءته تحققت .

— ٥٥ —

كان بوج جارجال ينتظرنى فى الوادى فارتميت بين ذراعيه ، وتملكنى الكرب وانا اريد ان اساله الف سؤال ولا استطيع النطق بـكلمة واحدة .

قال لى : اسمع ... ان زوجتك ، اختى فى امان . ذهبت بها الى معسكر البيض وعهـدت بها الى قريب لك يقـود المراكز الامامية . واردت ان اسلم نفسى كاسير خـــوفا من ان يقتلوا بدلا منى الاشخاص العشرة الذين يضمنون عودتى . ونصحنى قريبك ان اهرب وان احاول انقاذك من العذاب حيث انهم لن يعدموا الرجال العشرة الا اذا مت انت ، وهذا ما يجب ان يعلن عنه بياسو برفع العلم الاسود اعلى مكان من الجبل . وعندئذ اخذت اعدو ، وقادنى راسك واتيت فى الوقت المناسب واحمد الله فسوف تعيش انت واعيش انا .

وبسـط لى يده واردف يقول : هل انت راض يا اخى ؟

ضممته الى صدرى مرة اخرى وتوسلت اليه الا يفارقنى وان يبقى معى بين البيض ووعدته برتبة فى الجيش الاستعمارى ، ولكنه قاطعنى وهو يقول فى غلظة :

— اخى ... اترانى اقترح عليك ان تلتحق بجيشنا .

الجمنى رده ولزمت الصمت . واردف هو يقول فى مرح :

— هلم بنا . امض سريعا لكى ترى زوجتك وتطمئنها .

ولمس قوله هذا الوتر الحساس فى نفسى فنهضت والدنيـــا

Looloo
www.dvd4arab.com

لا تسعنى لفرط سعادتى وانطلقنا . وكان يعرف الطريق فتقدمنى فى حين تبعنا راسك .

وهنا امسك دوفرنى عن الكلام ، والقى نظرة كئيبة حوله . كان جبينه يتفصد بالعرق . وغطى وجهه بيده ونظر راسك اليه فى قلق وقال :

ـ نعم . هكذا كنت تنظر الى .

وفى اللحظة التالية كان قد نهض وهو فى شدة الانفعال وخرج من الخيمة . ورافقه الرقيب والكلب .

ـ ٥٦ ـ

قال هنرى : اراهن اننا ندنو من الكارثة ، ويحزننى جدا ان يكون قد وقع لبوج جارجال شىء ، فقد كان رجلا ولا كل الرجال .

رفع باسكال عن شفتيه عنق زجاجة النبيذ وقال : وددت ، ولو مقابل عشر سلال من النبيذ ان ارى قشرة جوز الهند التى افرغها فى جوفه مرة واحدة .

وكان الفريد يعزف لحنا حالما على الجيتار فامسك لكى يقول : ان هذا الزنجى يثير اهتمامى كثيرا ، ولكننى لم اجرؤ على سؤال دوفرنى هل كان يعرف هو الآخر اغنية « انما انا المهرب » ؟

وعاد باسكال يقول : ان بياسو هذا رجل فريد . وان نبيذه لا يساوى شيئا ، ولكنه على الاقل رجل يعرف قدر الرجل الفرنسى . ولو اننى كنت اسيرة لاطلقت شاربى لكى يضع عليه بضعة قروش كما فعل ذلك النقيب البرتغالى فى مدينة جوا . اقول لكم ان دائنى اشد قسوة من بياسو هذا .

قال هنرى وهو يلقى حافظة نقوده لباسكال : وبهذه المناسبة ، اليك الدينارات الاربعة التى ادين بها لك .

نظر النقيب فى دهشة الى مدينه الكريم الذى كان فى مقدوره ان يقول بحق انه دائنه . واسرع هنرى يقول :

ـ ما رايكم ايها السادة فى القصة التى رواها لنا النقيب حتى الآن ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

قال الفريد : الحق انني لم استمع اليها باهتمام كبير . ولكنني اعترف لكم انني كنت اامل ان اسمع من شفتي دوفرني الحالم شيئا اكثر اهمية ، ثم انها قصة غرامية نثرية ، وانا لا احب القصص الغرامية النثرية لانني لا اعرف على اي لحن اشدو بها . صفوة القول ان قصة يوج جارجال تثير ضجري فهي قصة طويلة .

قال باسكال : انت على صواب . هي حقا قصة طويلة ، ولو لم استعن بفليوني وزجاجتي لقضيت ليلة سيئة . ولاحظوا فوق ذلك ان فيها اشياء غير معقولة . فكيف نصدق مثلا ان ذلك القزم الساحر .. ما اسمه .. هابيتاه ؟ .. كيف نصدق انه لكي يفرق عدوه يرضى ان يفرق نفسه في نفس الوقت .

قاطعه هنري قائلا : وفي الماء بالذات . اما انا ، فان الذي اثار طربي في قصة دوفرني فهو ان ارى كلبه الاعرج يرفع راسه كلما نطق باسم يوج جارجال .

وسمعوا وقع خطوات تقترب فادركوا ان دوفرني يعود . وسكتوا جميعا . واخذ دوفرني يمشي بضع لحظات وهو عاقد ذراعيه فوق صدره . وكان ثاديه العجوز قد جلس مكانه وراح يرقبه خلسة متظاهرا بانه يلاطف راسك حتى لا يلحظ النقيب ارتباكه .

واستانف دوفرني قصته اخيرا فقال :

— مشى راسك خلفنا . ولم تكن اشعة الشمس تنير اعلى صخرة بالوادي ولكن الضوء صبغ الصخرة فجاة ثم اختفى . وارتجف الاسود وضغط على يدي بشدة وهو يقول :

— اسمع !

فقد دوى الوادي صوت اصم اشبه بدوي المدفع ، وردد الوادي صداه . وقال الزنجي بصوت كئيب :

— هذه هي الاشارة !

واستطرد : هذا صوت مدفع ، اليس كذلك ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

اومات بالايجاب . وفى وثبتين اثنتين كان قد اعتلى صخرة عالية . وتبعته . وعقد ذراعيه وابتسم فى حزن وقال :

ـ هل ترى ؟

ونظرت الى الناحية التى اشار اليها . ورايت فوق الصخرة التى اشار اليها اثناء حديثنا مع مارى ، وهى الوحيدة التى كانت اشعة الشمس لا تزال تنعكس عليها ، علما اسود .

وهنا سكت دوفرنى سكتة قصيرة ثم قال :

ـ وقد عرفت فيما بعد ان بياسو ، فى تعجله الرحيل وفى اعتقاده بانى ميت لا محالة امر برفع العلم الاسود قبل عودة فرقة الاعدام التى تصاحبنى .

وكان بوج جارجال لا يزال واقفا مكانه عاقدا ذراعيه فوق صدره وينظر الى العلم المشئوم . وفجاة تحول الى فى حدة ومشى بضع خطوات كانه يريد الهبوط من فوق الصخرة وقال :

ـ يا الهى ! .. يا الهى ! .. وزملائى المساكين .

ثم عاد الى وقال : هل سمعت صوت المدفع ؟

ولم اجب ، فعاد يقول :

ـ حسنا يا اخى ... هذه هى الاشـــارة ... انهم يسوقونهم الآن .

وهوت راسه فوق صدره ، وازداد دنوا منى ثم قال : عد الى زوجتك يا اخى ... سيقودك راسك .

ودندن باغنية افريقية ، وراح الـكلب يهز راسه ، وبدا انه يريد أن يمضى الى نقطة الوادى .

وتناول بوج جارجال يدى وحاول ان يبتسم : ولكن ابتسامته كانت نوما من التشنج . وصاح يقول فى صوت قوى : الوداع .

واختفى بين الاشجار المحيطة بنا .

تـــمرت مكانى كالمصعوق . وجعلنى القليل الذى حدث اتوجس كل شر .

واذ راى راسك سيده يختفى تقدم نحو حافة الصخرة وراح يهز راسه وهو ينبح نباحا حزينا شاكيا ثم عاد وهو يهز ذيله وقـد

Looloo
www.dvd4arab.com

لتدرت عيناه الواسعتان ونظرا الى فى قلق ثم عاد الى المكان الذى انطلق منه سيده ونبح بضع مرات . وفهمته ، فقد احسست بنفس مخاوفه . وتقدمت بضع خطوات نحوه ، وعندئذ اسرع يعدو مقتفيا خطوات بوج جارجال . ولولا انى كنت اجرى انا الآخر بكل قواى لما لحقت به فقد كان من الممكن ان افقد اثره لو لم يكن يتوقف ما بين آونة واخرى لكى يمكننى من اللحاق به . واجتزنا وديانا كثيرة وتلالا يغطيها غابات كثيفة واخيرا ..

وخيا صوت دوفرنى وارتسمت على وجهه امارات يأس شديد ، وتمكن اخيرا من النطق بهذه الكلمات :

ـ اكمل انت القصة يا ثاديه فانى اشعر بان قوتى قد وهنت كما لو كنت امراة عجوزا .

ـ بعد اذنك ... ما دمت تريد يا سيدى النقيب .. يجب القول ايها السادة الضابط انه على الرغم من ان بوج جارجال المعروف باسم بيرو كان زنجيا عملاقا شهما وكريما شجاعا فاننى لم اكن اميل اليه كثيرا ، وهذا شىء لم اغفره لنفسى ابدا بحيث انى عندما علمت ان معسكر بياسو ينوى ان يقتلك عند مغيب شمس اليوم التالى استولى على غضب شديد نحو ذلك الرجل المسكين وشعرت بسرور لا يوصف وانا اقول له انه سيعدم هو او عشرة من رجاله ردا على موتك . ولم ينطق بأى كلمة فيما عدا انه هرب بعد ساعة ، بعد ان احدث ثقبا كبيرا فى سجنه و ...

ابدى دوفرنى بحركة تدل على فروغ صبره فقال ثاديه :

ـ ليكن ... عندما راينا العلم الاسود يرفرف فوق الجبل ، واذ راينا انه لم يعد ، وهو الامر الذى لم يدهشنا اطلقنا طلقة من المدفع كاشارة وامرت ان يساق الرجال العشرة الى مكان الاعدام ، ويبعد عن المعسكر بنحو ... ولكن هذا امر لا اهمية له ... وعندما بلغنا المكان المذكور فى مكانه . وفى هذه اللحظة رايت الزنجى العملاق آتيا من ناحية الغابة . وتهاوت يداى . وجاء الى وهو يلهث وقال :

ـ اننى اتيت فى الوقت المناسب . طاب يومك يا ثاديه .

نعم ايها السادة . لم ينطق بغير هذه الكلمات ومضى ففك قيود

Looloo
www.dvd4arab.com

مواطنيه . اما انا فوقفت مشدوها . ودارت عندئذ معركة كبيرة من المشاعر الكريمة بينه وبين السود كان يمكن ان تستمر طويلا ... لولا انني انهيتها للأسف ، فاخذ مكان السود ... وفي هذه اللحظة وصل كلبه المسكين راسك وهجم على وانشب أظافره في عنقي . وكان من الممكن ان يزهق روحي لولا ان بيرو اتى باشارة تركني الكلب على اثرها . ومع ذلك فان بوج جارجال لم يستطع منعه من ان يرقد عند قدميه . وعندئذ ، ومعتقدا انك لقيت حتفك يا سيدي النقيب ... كنت محقا ... فصحت :

بسط الرقيب يده ونظر الى النقيب ولكنه لم يستطع النطق بالكلمة الاخيرة .

— وسقط بوج جارجال ... واصابت رصاصة كلبه في قدمه وكسرتها . ومنذ ذلك الوقت ايها السادة الضباط (وهز الرقيب راسه في اسى) منذ ذلك الوقت وهو اعرج . وسمعت انينا في الغابة المجاورة فمضيت ناحيته . كانت رصاصة قد اصابتك في اللحظة التي هممت فيها بالجرى لكي تنقذ الزنجي العملاق . نعم يا سيدي النقيب. كنت تئن وتبكي ، ولكنك كنت تندبه هو فقد مات بوج جارجال .

وامسك الرقيب عن الحديث . وعاد دوفرني يقول في صوت حزين : مات بوج جارجال !

واطرق ثاديه براسه الى الارض وقال : نعم . انه انقذ حياتي اما انا فقتلته .

Looloo
www.dvd4arab.com

الخاتمة

بما ان القارىء يطلب عادة تفسيرا نهائيا عن مصير كل الاشخاص الذين يهتم بهم فقد قمنا ببحث مستفيض عما حدث للنقيب ليوبولد دوفرنى والرقيب ثاديه والكلب راسك ، ولعلنا نذكر ان لحزن النقيب سببا مزدوجا وهو موت بوج جارجال المعروف باسم بيرو وموت حبيبته مارى التى نجت من حريق حصن جاليفيه ولقيت حتفها فى الحريق الذى دمر مدينة الكاب . اما النقيب نفسه فهذا ما اهتدينا اليه فيما يتعلق به .

فى غداة احدى المعارك الكبرى التى انتصرت فيها جيوش الجمهورية الفرنسية على جيوش اوروبا جلس اللواء المكلف بالقيادة العامة لكتابة التقرير الذى يجب ان يرسله ، استنادا الى مذكرات مساعديه ، الى الجمعية التاسيسية العامة ، عن النصر الذى احرزه جيشه بالامس .

وجاءه احد رجاله يقول له ان ممثلا عن الشعب يريد ان يتحدث اليه . وكان اللواء يمقت هذا النوع من السفراء ذوى القبعات الحمراء الذين يوفدهم ساسة الثورة الفرنسية الى المعسكرات وذلك لاذلالهم وعزلهم من وظائفهم ، فهم فى الحقيقة دساسون مكلفون من الجلادين بالحط من الانتصارات ومن كبار الضباط ، ومع ذلك فقد كان من الخطر رفض زيارة اى واحد منهم خصوصا بعد احراز النصر فى احدى المعارك . ولهذا اصدر اللواء بادخال المندوب .

وبعد ان هنأ المندوب اللواء للانتصار الذى احرزته الجيوش الجمهورية اقترب منه وقال فى صوت خافت :

ـ ولكن ليس هذا كل شىء ايها المواطن الجنرال ، فلا تكفينا هزيمة الاعداء فى الخارج وانما لابد من ابادتهم فى الداخل .

اجابه الجنرال متسدوها : ماذا تقصد ؟

قال مندوب الجمعية التاسيسية الناضرة ان فى جيشك رجلا

www.dvd4arab.com

يدعى ليوبولد دوفرنى ، وهو يقود الفرقة الثانية والثلاثين ، فهل تعرفه أيها الجنرال .

اجابه الجنرال : نعم . كنت اقرا تقريرا من القائد المساعد عن هذه الفرقة بالذات . ان قائدها نقيب ممتاز .

قال المندوب فى ترفع : كيف هذا ايها المواطن الجنرال . اتكون قد منحته رتبة اخرى ؟

ــ لا اخفى عليك أيها المواطن المندوب ان هذه كانت نيتى فى الواقع .

صاح المندوب يقول فى حدة : ان النصر قد اعمى بصيرتك ايها الجنرال ، فحذار مما تفعل ومما تقول . اذا انت احتضنت ثعابين الشعب الاعداء فكن على حذر والا حطمك الشعب مع الثعابين . ان ليوبولد هذا ارستقراطى ، ومن اعداء الثورة ، من الملكيين اليعقوبيين ، وعدالة الشعب تنادى به ويجب ان تسلمه لى على الفور .

اجابه الجنرال فى برود : لا استطيع .

صاح المندوب وقد ازداد حدة : كيف هذا ؟ .. لا تستطيع ؟ الا تعلم أيها الجنرال انه لا حدود لسلطتى هنا . ان الجمهورية تامرك وانت تقول انك لا تستطيع . اصغ الى . تسامحا منى نظير الانتصار الذى احرزته اريد ان اقرا عليك التقرير الذى جاءنى بخصوص هذا الدوفرنى والذى يجب ان ابعث به هو بالذات الى المدعى العام . وهو موجز من قائمة اسماء ارجو الا تضطرنى الى اضافة اسمك اليها .

« ليوبولد اوفرنى (بعد حذف حرف الدال الذى يشير الى نبل الاسم) النقيب بالفرقة الثانية والثلاثين ، متهم ، اولا ، بانه ذكر فى اجتماع لبعض المتآمرين قصة مزعومة مضادة للثورة من شانها تسخيف مبادىء المساواة والحرية وتمجيد الخرافة القديمة المعروفة باسم الملكية والدين . ثانيا : بانه وصف مختلف الاحداث الاخيرة والشهيرة وخاصة تحرير زنوج سانتو دومينجو ، باوصاف يستنكرها كل من يساند الثورة . ثالثا : بانه يستخدم فى حديثه دائما كلمة « السيد » ولا يستخدم كلمة مواطن ابدا ، ورابعا واخيرا بانه تآمر علانية لقلب نظام الحكم الجمهورى لصالح اليعقوبيين والملكيين ، وهو يستحق الموت .

« حسنا ايها الجنرال ، ما رايك فى كل هذا ؟ اما زلت تدافع

Looloo
www.dvd4arab.com

عن هذا الخائن ؟ وهل تتردد فى تسليم عدو الشعب لكى يلقى جزاءه ؟

اجابه اللواء فى وقار : ان عدو الشعب كما تدعوه ضحى بنفسه فى سبيل الشعب ، وسارد على تقريرك بتقرير آخر منى انا فاسمع بدورك .

« ليوبولد دوفرنى ، النقيب بالفرقة الثانية والثلاثين تسبب فى الانتصار الاخير الذى احرزته قواتنا ، فقد اقام المتحالفون متراسا محكما كان لابد من تحطيمه ، وموت الياسل الذى يشن عليه الهجوم قبل غيره كان امرا مؤكدا . وقد ضحى الكابتن دوفرنى بنفسه فهجم على المعقل ولقى حتفه ولكننا انتصرنا . وقد عثرنا على الرقيب ثاديه ميتا بجواره ومعه كلب . ونحن نقترح على الجمعية التاسيسية الوطنية ان تشيد بالنقيب دوفرنى لانه ابلى بلاء حسنا فى سبيل وطنه .

واستطرد الجنرال يقول فى هدوء :

ـ ارايت ايها المندوب الى اختلاف مهمتينا ، فان كل واحد منا يرسل تقريرا الى الجمعية التاسيسية الوطنية . ونفس الاسم يوجد فى التقريرين ، فانت تقول انه خائن وانا اقول انه بطل ، وانت تقيم له المقصلة اما انا فاطلب ان يقام له نصبا تذكاريا ... لكل منا رايه . ولكن مما يدعو الى السرور والابتهاج ان هذا البطل قد افلت من تعذيبك فى معركة ، والحمد لله فان الذى كنت تريد ان تقتله قد مات ، ولم يسمعك .

استولى الغضب على المندوب وهو يرى مؤامراته تتبخر مع متآمره ، وتمتم يقول بين اسنانه :

ـ انه مات . يا للخسارة !

سمعه الجنرال فصاح ساخطا : ما زال فى جعبتك سهم اخير ايها المندوب . امض وابحث عن جسد النقيب دوفرنى بين حطام المعقل فمن يدرى ... لعل الاعداء تركوا راسه للمقصلة .

« تمت »

Looloo
www.dvd4arab.com

هـذه الروايـــة

تقع احداث هـذه الرواية فى جزيرة سانتو دومينجو ، احدى جزر الهنـد الغربية ، واكبرهـا بعد جزيرة كوبا ، وتعرف الآن باسم هايتى ، وكانت تعرف فى الوقت الذى اكتشفها فيـــه كريستوف كولومبس باســـم هسبانيوله .

وفى الوقت الذى تبدأ فيه هذه الرواية كان الجزء الاكبـر منها وتقع فى غرب الجـــزيرة يحتله الفرنسيون ، اما الجـــزء الشرقى فكان يقع تحت الاحتلال الاسبانى وكانت الثورة الفرنسية قد طبقت فى ذلك الحين مبادىء الحرية والمساواة ووافق البيض على هذه المبادىء ولكنهم رفضوا منحها للسود .

وتحكى هذه القصـــة الصراع الدامى بين البيض والســـود والحرب الضروس التى نشـــبت بينهم ، تتخللها قصة حب عظيم حب عبد اسود تتجلى فيه شهامة الاسود ورقته ونبل اخلاقه .